





سنة وفاته
السنة النبوية
المستوية

الشرح المبسّر

لِصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ

المستقى

الدَّرَرُ وَاللَّيْلِي بِشَرْحِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ

شرح سهل مبسّر لجميع إمام البخاري مع العناية بتوضيح الألفاظ اللغوية
والفوائد المستنبطة من الأحاديث النبوية الشريفة، وما حوت من أحكام شرعية
وما فيه من نفائس الدرر الثمينة

بقلم

خادم الكتاب والسنة

محمد عيسى الصابوني

المجلد الأول



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

حازت شرف إصدارها

المكتبة العصرية

لبنان

مع



متخصصون في طباعة القرآن الكريم

ومؤلفات خدام الكتاب والسنة الشيخ / محمد علي الصابوني

تأسست عام ١٤١٨ هـ - الموافق ١٩٩٨ م

alofoq@hotmail.com بيروت - لبنان هاتف ٠٠٩٦١٣٤٤٦٦١ تلفاكس ٠٠٩٦١١٨٢٤٢٠٥

أو

المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة - ص.ب ٧٢٤٢

أو

المكتبة العصرية - بيروت ص.ب ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥٠١٥

صيدا ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٢٠٣١٧

E. Mail

alassrya@terra.net.lb alassrya@cyberia.net.lb info@alassrya.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله القائل ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا وحبيبنا محمد بن عبد الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التسليم وبعد.

فلما كانت السنة النبوية المطهرة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي الحنيف بعد القرآن العظيم، فقد عكف أئمة العلم على مدى التاريخ الإسلامي منذ زمن الرسول ﷺ إلى يومنا هذا على حفظها وتدوينها والذب عنها، وكان من أهم العلماء الذين قاموا بذلك، الإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري، الذي صنف كتابه الشهير بصحيح البخاري والذي أسماه (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، ليكون بذلك كما قال العلماء: أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل.

ثم قام العديد من الأئمة العلماء بشرح هذا الكتاب، وتوضيح معاني الأحاديث الشريفة، فكانت كتبهم كالنجوم يستضاء بها في فهم الحديث النبوي الشريف.

ولما كان الناس في زماننا هذا بحاجة إلى شرح واضح ميسر لهذا الكتاب الجليل، ليكون في متناول الجميع، بعد أن كانت الشروح السابقة خاصة بطلاب العلم، لا يفهمها عامة الناس، فقد تصدر لهذا العمل الجليل فضيلة العلامة خادم الكتاب والسنة الشيخ محمد علي الصابوني، الذي عودنا على تفاسيره وشروحه الواضحة والميسرة للكتاب والسنة، فجاء كتابه هذا الموسوم بـ(الشرح الميسر لصحيح البخاري - الدرر واللالي في شرح صحيح البخاري) شرحاً سهلاً ميسراً انطبق اسمه على مسماه، واضح العبارة مرتباً بطريقة عصرية، فنسأل الله أن يثيبه على عمله هذا خير الجزاء، وأن ينفع به الأمة الإسلامية.

وقد تشرفت دار الأفق بنشر هذا الكتاب، راجية من المولى قبوله وأن يوفقها في نشر العلم بين أبناء الأمة.

والله ولي التوفيق.

الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمدُ لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، حمداً يليق بجلاله، وعظيم نعمائه، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء، وخاتم المرسلين، النبي الأميِّ الهادي البشير، أرسله الله بين يدي الساعة، بالحجج الساطعة، والبراهين القاطعة، وخصه بالحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه شمس الهدى، ومصابيح الدُّجى، الذين نقلوا لنا هَدْيَ سيد المرسلين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ السُّنَّةَ النبويَّةَ الشريفة، هي المصدر الثاني للشرعية المحمديَّة الغراء، وهي المنبعُ الصافي الذي يستنبط منه العلماء، والفقهاء، الأحكام التشريعية، وقد قال ﷺ: «لقد تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلُّوا بعدي أبداً: كتابُ الله، وسُنَّتِي». [رواه مالك في الموطأ]

وقد اعتنى المسلمون عناية فائقة بسنن سيِّد المرسلين، ونقلوها إلينا صافيةً، واضحةً، جليَّةً، بطرق صحيحة هي في غاية الدقَّة والإتقان، بلغوا فيها غاية الجُهد والتمحيص، لتصل إلينا نوراً يتلأل، لا يدخلها خللٌ، ولا غَبَشٌ، ولا كَدَرٌ، وكان على رأس هؤلاء الجهابذة الأعلام: الإمام البخاري قدس الله روحه، ونور ضريحه، حيث كان كتابه الموسوم باسم (الجامع الصحيح) أصحَّ كتاب بعد القرآن العظيم، حتى قال بعضُ أفاضل العلماء: «ما تحت أديم السماء، كتابٌ أصحُّ من كتاب الصحيح للإمام البخاري».

هذا وقد طلب مني بعض فضلاء العلماء، أن أضع شرحاً مبسّراً بسيطاً على (صحيح الإمام البخاري) ليسهل على طلاب العلم فهمه، حيث أكرمني الله عز وجل بخدمة الكتاب والسنة، لتشملني دعوة رسول الله ﷺ، حيث قال صلوات الله

وسلامه عليه: «تَضَرَّ اللَّهُ امرءٌ سمعَ مِنَّا حديثاً فحفظه، فبلغه كما سمعه، فربَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى من سامعٍ» رواه الترمذي.

كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ» أخرجه أبو داود والترمذي.

وقد أجبْتُ الأخ الفاضل إلى طلبه، مستعيناً بالله عزَّ وجل على هذا الأمر الجليل، طالباً منه أن يوفِّقني لاستخراج هذه الدرر الثمينة، المستنبطة من أحاديث سيد المرسلين ﷺ وقد سلكْتُ في شرح هذا السُّفر القِيم، بأجزائه الخمسة، الخُطَّة الآتية، وتوضيُّحها كالتالي:

الأولى: كتابة الحديث الشريف، مبوّباً، مُسَكَّلاً بالحركات، لئلا يقع خطأ في قراءة ألفاظه.

الثاني: شرح الألفاظ اللغوية، والجمل التي تناولها الحديث بشيء من التفصيل.

الثالث: توضيح معنى الحديث بشيء من الإيجاز، خشية التطويل، تحت عنوان (شرح الحديث).

الرابع: الأحكام التشريعية التي تُستنبط من الحديث، مع الاستعانة بأقوال المحدثين، وأقوال الأئمة الفقهاء الأربعة المجتهدين، وعنونْتُ لها بعبارة (ما يُستفاد من الحديث الشريف).

الخامس: التعريف ببعض رواة الحديث، ممن لهم قصص متعلّقة برواية الحديث، كقصة أبي هريرة مع أمه المشركة، وقصة جابر بن عبد الله مع خصومه الدائنين، وقصة عمرو بن العاص وغيرهم من الصحابة الأجلاء، وما فيها من المعجزات الباهرة لسيدنا رسول الله ﷺ.

السادس: ذكر بعض ما يتعلق بالحديث الشريف، من الأمور الهامة التي ينبغي التنبيه لها، مما لها تعلق وثيق بالحديث، تحت عناوين (تنبيه هام) أو (تنبيه لطيف) أو (فائدة مهمة) إلى آخر ما هنالك من الفوائد.

السابع: الردُّ العلمي الموثَّق، بالحجج الدامغة، على من ضَعَّف بعض الأحاديث الواردة في صحيح البخاري، أو أنكرها، زعماً منه أنها تصادم العقل، أو لا تتفق مع العلم، أو تُعارض الوحيَ الإلهي، كحديث (سحر اليهود) للنبي ﷺ، وحديث (نفى العدوى) وحديث (إذا وقع الذباب في إناء أحدكم) وغيرها من الأحاديث، التي استغلق فهمها على بعض دكاترة هذا العصر، والرد عليها بما يقصم ظهر الباطل.

الثامن: الترتيب المنظم لهذا الشرح، مع تبسيط العبارة، وسهولة فهم الحديث، دون صعوبة ولا تعسير.

التاسع: تم اعتماد ترقيم الأحاديث حسب ترقيم صحيح البخاري في الطبعة الأميرية المعتمدة على النسخة اليونانية والتي اعتمدها الإمام القسطلاني في كتابه (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري).

العاشر: الأحاديث التي لم تشرح بسبب تكرارها، فإن كان لها طرف واحد للحديث وذكرنا (سبق شرحه) فيعني بأن شرحه في الطرف المذكور، وإذا كان للحديث أكثر من طرف ذكرنا مكان شرحه.

وقد اقتصر في الشرح على الأحاديث المذكورة في صحيح البخاري، دون المكرر منه، لأن في المكرر، يطول الشرح، ويطول الكلام، وغرضنا في هذا الكتاب الإيجاز، دون الإسهاب والإطناب، وقد أشرت في الحديث المكرر إلى مكان شرحه حسب ترقيم صحيح البخاري، ليرجع إليه القارئ بكل سهولة ويسر، والله أسأل أن ينفع بهذا الشرح الميسر، طلبة العلم الذين يبغون العلم والانتفاع بهدي سيد المرسلين، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

وصلّى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

كلمة يسيرة عن الإمام البخاري قدّس الله روحه ونور ضريحه

قال إمام الأئمة الحافظ ابن خزيمة رحمه الله: «ما تحت أديم السماء، أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري».

التعريف بالبخاري

وبعد:

من هو البخاري؟ وما هي مزاياه وحسناته؟ وما هي مكانته العلمية بين جهاذة المحدثين؟!؟

الإمام البخاري هو ذلك الطود الشامخ، والنجم الفرفد الساطع، الذي تربّع على عرش خدمة (السنة النبوية) المطهرة، حتى صار علماً من أعلامها، ورمزاً من رموز المحدثين، الأثبات الثقات، فنال مرتبة «أمير المؤمنين» في الحديث النبوي الشريف، رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

مولده ونشأته:

هو أبو عبد الله «محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة» الجعفي البخاري رحمه الله تعالى. وُلد ببلدة بخارى سنة (١٩٤) أربع وتسعين ومائة هجرية، وتوفي سنة (٢٥٦) ست وخمسين ومائتين هجرية، وعمره لا يتجاوز (٦٢) اثنتين وستين سنة، ولكنه عُمر مبارك، عامر بالعلم، زاخر بالتقوى والصلاح، وبهذا فتح الله عليه كنوز المعرفة، وأشاد به صرح الدين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

رحلته في طلب العلم:

رحل البخاري في طلب العلم، إلى عواصم البلاد، والتقى بمحدثي الأمصار، «في خراسان، والعراق، والحجاز، ومصر، والشام»، وأخذ الحديث عن جهاذة

المشايخ الحُفَظ الذين كانوا ينتشرون في أنحاء العالم الإسلامي الواسع الفسيح .
ومن أكابر شيوخ البخاري، الذين أخذ الحديث عنهم: «مَكِّيُّ البلخي» و«عَبْدَانُ
المَرْوزِي» و«أَبُو عاصم الشَّيبَانِي» و«محمد الفِرْيَابِي» و«الفضلُ بْنُ دُكَيْن» و«عليُّ بْنُ
المديني» و«يحيى بْنُ معين» و«أحمدُ بْنُ حنبل» و«إسماعيلُ المدني» وغير هؤلاء من
الأئمة الأعلام .

كما أخذ عن البخاري خلقٌ كثيرون، لا يُحْصون عدداً، في كل بلدٍ دَخَلَهَا،
وحدَّث بها، وسمع كتاب البخاري تسعون ألف رجل .

طلب البخاريُّ العلم وهو ابن عشر سنين، كما يقول عن نفسه، ولمَّا بلغ سنَّ
ست عشرة سنة، حفظ كتب ابن المبارك، ووكيع، وخالطَ المُحدِّثين وهو صغير السنَّ،
فحفظ من أحاديثهم الشيء الكثير، وكان آيَةً في الحفظ والنبوغ!

قال البخاري رضي الله عنه متحدثاً عن رحلته العلمية:

(دخلتُ إلى بلاد الشام، ومصرَ، والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمتُ
بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلتُ إلى الكوفة، وبغداد، مع المُحدِّثين!

وحكى عنه محمد السَّجِسْتَانِي قال: (كان يختلف - أي يحضر - معنا إلى
مشايخ البصرة البخاريُّ، وهو غلامٌ فلا يكتب الحديث، بل يسمعه فقط، فَلَمَّا بعضُ
الناس بعد خمسة عشر يوماً، فقال: لقد أكثرتم عليَّ، فاعرضوا عليَّ ما كتبتم،
فأخرجنا له ما كتبناه، فقرأها كُلُّهَا علينا عن ظهر قلب، حتى جعلنا نصَّح ما كتبناه
من حفظه) كما في فتح الباري لابن حجر، المقدمة ص ٤٧٨.

وقال البخاري:

أُلهِمْتُ حفظَ الحديث وأنا في الكُتَّاب أحفظ القرآن، قيل: كم كان عمرك إذ
ذاك؟ قال: عشر سنين .

من كرامات الإمام البخاري:

كان والده «إسماعيلُ بْنُ إبراهيم» من الزُّهَّاد العابدين، والصالحين الوَرَعين،
دخل عليه بعض الناس من محبِّيه عند موته، فقال لهم: لا أعلم من مالي درهماً من
حرام، ولا درهماً من شُبْهة، والحمدُ لله على فضله وإنعامه! ولمَّا مات والده
«إسماعيل» كان محمد صغير السنَّ، فنشأ في جِبر أمه، ثم حجَّ مع أمه وأخيه
(أحمد)، فأقام البخاري بمكة، مجاوراً يطلب العلم، ورجع أخوه أحمد إلى بخاري،
فمات بها! .

وروى اللالكائي في «شرح السنَّة»، في باب (كرامات الأولياء) أن محمد بن

إسماعيل - يعني البخاري - ذهبَ عيناه في صغره، فرأَتْ والدته «إبراهيمَ الخليل» عليه السلام في المنام، فقال لها: لا تحزني يا هذه، لقد ردَّ الله على ابنك بصره، بكثرة دعائك له، فأصبح الصغيرُ وقد ردَّ الله عليه بصره!! وهذه من أظهر كرامات الصالحين.

كيف أُلّف البخاري كتابَ الصحيح؟

يقول الإمام البخاري تغمَّده الله بالرحمة والرضوان: صَنَّفْتُ كتابَ الصحيح، من زهاء ستمائة ألف حديث، وما وضعتُ فيه حديثاً، إلا اغتسلتُ قبل ذلك، وصليتُ ركعتين، وكان تصنيفي له في ستِّ عشرة سنة، وجعلته حجةً فيما بيني وبين الله تعالى.

وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» فقال:

لَمَّا صَنَّفَ البخاريُّ (كتابَ الصحيح) عَرَضَهُ على ابنِ المديني، وأحمدَ بنِ حنبلٍ، ويحيى بنِ معينٍ وغيرهم، فاستحسنوه، وشهدوا له بالصحة - وهؤلاءُ شيوخُه -! وذكر ابن حجر عن نجم بن فضيل - وكان من أهل العلم والفهم - أنه قال: «رأيتُ النبي ﷺ في المنام، وقد خرج من قبره، والبخاريُّ يمشي خلفه، فكان النبي ﷺ إذا خطا خطوة، يخطو البخاري خلفه، ويضع قدمه على خطوة النبي ﷺ». وهذه إشارة لطيفة، إلى تتبعِ أحاديث النبي ﷺ، والافتداء «بآثاره، وأقواله، وأفعاله».

كما حكى ابنُ حجر: أنَّ الإمام «مسلم بن الحجاج» صاحبَ الصحيح، جاء إلى «محمد بن إسماعيل البخاري»، فقبِلَ بينَ عينيه، وقال: دعني حتى أقبلَ رجلك، يا أستاذَ الأساتِذِين، وسيدَ المحدثِين، وطبيبَ الحديث في عِلِّله - أي فيما يُعرف به الصحيح من الضعيف - رويْتُ عن أبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «كفارةُ المجلس أن يقول إذا قام: (سبحانَكَ اللهم وبحمدَكَ، أستغفرك وأتوب إليك) إلخ، فذكر له البخاري سببَ علته، فلمَّا قَرَعَ من حديثه، قال له مسلم: (لا يبغضك إلَّا حاسد، وأشهد أن ليس في الدنيا مثلك) اهـ. فتح الباري ص ٤٨٨ من المقدمة.

السببُ الباعثُ للبخاري على التأليف:

كان الباعثُ للإمام البخاري على وضع كتابَ الصحيح - ملتزماً فيه شروط الصحة، للأحاديث التي يروونها - هو ما ظهرَ له من الكتب التي رآها في زمانه، حيث جَمَعَتْ بينَ الصحيح والضعيف، والغث والسمين، فتحرَّكت نفسه إلى إخراج كتاب لا يُجمع فيه إلَّا (الصحيح)، لا سيَّما بعد أن سمع من شيخه «إسحاق بن راهويه» وهو يحثُ تلامذته لتنقية كتب الحديث من الضعيف، فقال لهم: لو جمعتم كتاباً مختصراً

لصحيح أحاديث رسول الله ﷺ؟! فوق كلامه في قلب الإمام البخاري، فشمر عن ساعد الجد، وبدأ رضي الله عنه في جمع الصحيح، وسمّاه (الجامع الصحيح). وقوى عزمته تلك الرؤيا التي رآها في منامه، وهي أنه رأى النبي ﷺ جالسا، وهو واقف بين يديه، ومعه مروحة يذب فيها عن وجه سيدنا رسول الله ﷺ، فأولها له بعض شيوخه، بأنك ستدفع الكذب عن رسول الله ﷺ.

رحم الله الإمام البخاري، وأسكنه فسيح جناته، بما خدم به سنة سيد المرسلين، وبما أسدى للأمة الإسلامية، من حماية (السنة المطهرة)، التي هي (الركن الثاني) بعد القرآن العظيم، وهي التفصيل والتوضيح لهذا الكتاب المعجز، الذي تحدى الله به البشر، وقال عنه رب العزة والجلال: ﴿قُلْ لِّىنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] أي معينا ونصيرا، ففي القرآن والسنة: الهدى والشفاء، وقد قال أشرف الأنبياء سيدنا رسول الله ﷺ: «لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله، وسنتي». أخرجه الإمام مالك في الموطأ.

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كِتَابُ

(بَدِءُ الْوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)

بَابُ (الأعمال بالنيّات)

١ - عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَنبَرِ يَقُولُ:
(إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ).
[الحديث أطرافه في: ٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣].

شرح الألفاظ

(كتاب بدء الوحي): أي باب كيف كان ابتداء نزول الوحي على الرسول ﷺ؟ وكيف جاءه جبريل بالوحي من السماء؟

معنى الوحي: الإعلام والإخبار، قال في الصحاح: الوحي: الكلام الخفي، ويطلق على القرآن (وحي) لأنه موحي ومنزل من عند الله، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] سمى تعالى القرآن (روحاً) لأنه للقلوب بمنزلة الروح للبدن، يُخَيِّبُهَا مِنْ ظَلَمَةِ الْجَهْلِ، وقد ربط الإمام البخاري بين الباب، وبين قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] ليشير إلى أنَّ مُصَدِّرَ الْوَحْيِ إِلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَاحِدٌ، هو ربُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ، الَّذِي أَرْسَلَ أَمِينَ السَّمَاءِ (جبريل) عليه السلام إلى جميع رسله، بالوحي المنزل من عند الله تعالى، ويسمى جبريل (روح القدس) لقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ [النحل: ١٠٢].

(على المنبر) أي ذكر (عمر) وهو يخطب على منبر المسجد النبوي هذا الحديث الشريف، وسمعه جمع كبير من الصحابة، فالحديث بلغ درجة الشهرة، بل عدّه بعضهم من المتواتر، يعني (التواتر المعنوي) لا التواتر اللفظي، الذي يكون بكثرة الطرق والرواة.

باب (الأعمال بالنيات)

١ - عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمَنْبَرِ يَقُولُ:
(إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَاجَرْتُهَ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ).
[الحديث أطرافه في: ٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣].

شرح الألفاظ

(كتاب بدء الوحي): أي باب كيف كان ابتداء نزول الوحي على الرسول ﷺ؟ وكيف جاءه جبريل بالوحي من السماء؟

معنى الوحي: الإعلام والإخبار، قال في الصحاح: الوحي: الكلام الخفي، ويطلق على القرآن (وحي) لأنه موحي ومنزل من عند الله، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] سَمَّى تعالى القرآن (رُوحًا) لأنه للقلوب بمنزلة الروح للبدن، يُخَيِّبُهَا من ظلمة الجهل، وقد رَبطَ الإمام البخاري بين الباب، وبين قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] ليشير إلى أنَّ مُضدَّ الوحي إلى جميع الأنبياء والمرسلين واحد، هو ربُّ العزة والجلال، الذي أرسل أمين السماء (جبريل) عليه السلام إلى جميع رسله، بالوحي المنزل من عند الله تعالى، ويسمى جبريل (روح القدس) لقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [النحل: ١٠٢].

(على المنبر) أي ذكر (عمر) وهو يخطب على منبر المسجد النبوي هذا الحديث الشريف، وسمعه جمع كبير من الصحابة، فالحديث بلغ درجة الشهرة، بل عدّه بعضهم من المتواتر، يعني (التواتر المعنوي) لا التواتر اللفظي، الذي يكون بكثرة الطرق والرواة.

(إنما الأعمال بالنيّات) أصلُ إنّما (إنّ) التي هي للتأكيد، دخلت عليها (ما) لإفادة الحصر، أي لا يكون العمل صحيحاً، ولا مقبولاً عند الله، ولا يُثاب عليه، إلا إذا اقترن بالنيّة الصادقة. مثاله: إذا لم يتناول إنسان شيئاً من الطعام والشراب طيلة النهار، لا يُقال: إنه صائم، حتى يقصد بامتناعه مرضاة الله، والنيّة معناها: القصد، ومكانها القلب، وجميع العبادات من (صلاة، وصيام، وحج، وجهاد، وزكاة) تحتاج إلى نيّة سابقة.

(فهجرته إلى الله ورسوله) أي من كانت هجرته طلباً لمرضاة الله، كتب الله له أجر الهجرة كاملاً، لقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] شَرَطَ تعالى بأن تكون الهجرة في سبيل الله، حتى ينال المؤمن أجره عند الله تعالى.

(ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها) أي من أجل مكاسب دنيوية، كمن يهاجر من وطنه للتجارة، أو لكسب الرزق، فلا يُقال عنه: إنه مهاجر، حتى يكون غرضه من ترك الوطن، والهجرة من بلده، هو الحفاظ على عقيدته، وإعزاز الدين، تنفيذاً لأمر الله عز وجل، الذي أمر المؤمنين المستضعفين بالهجرة من الوطن، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

(أو امرأة ينكحها) أي من كانت هجرته لأجل أن ينكح امرأة يحبها، لا من أجل الدين، والرغبة في ثواب الله.

(فهجرته إلى ما هاجر إليه) أي لا يكون له ثواب المهاجر في سبيل الله، لأنه لم يقصد بهجرته، إلا مصلحة خاصة به، من غنى وثراء، أو نكاح وقضاء شهوة.

سبب ورود الحديث الشريف

قصة مهاجر أم قيس: ذكر المحدثون عند هذا الحديث الشريف، أنّ المسلمين لما أمروا بالهجرة من مكة إلى المدينة، هاجرَ معهم رجلٌ من المسلمين، كان قد خطبَ امرأة، يُقال لها: (أُمُّ قَيْسٍ) وكانت قد اشترطت عليه أن يهاجر إلى المدينة، حتى ترضى بزواجها منه، فهاجر رغبةً في الزواج منها، ولم يكن غرضه من الهجرة، إلا نكاح تلك المرأة!

قال ابن مسعود: فكنا نسّميه (مهاجر أم قيس) واشتهر ذلك بين المسلمين، كما في الطبراني.

ما يستفاد من الحديث

أفاد هذا الحديث الشريف، أن من كانت غايته من العمل مقصداً آخر، غير المقصد الديني، لم يحصل له الأجر والثواب، الذي يناله المؤمن المخلص في نيته، الذي يقصد بعمله وجه الله، لا شيئاً من شهوات الحياة، ومنافعها الفانية.

وهذا الحديث الشريف أصل من أصول الدين، إذ عليه يُبنى قبول العمل، أو رده، وهو ركن هام من أهم عناصر الإخلاص، حيث قال الحق جلّ وعلا: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]. فالعمل لا يكون مقبولاً عند الله تعالى، إلا بشرطين: الإخلاص في النية، وأن يكون موافقاً لهدي سيد المرسلين ﷺ.

باب (كيفية نزول الوحي)

٢ - عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلُ صَلَصلةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيَكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيَ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا). [الحديث طرفه في: ٣٢١٥].

شرح الألفاظ

(أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ): تُدعى السيدة عائشة (أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ) لأنها زوجة الرسول ﷺ، وجميع أزواج النبي ﷺ (أمهات للمؤمنين)، لقوله سبحانه: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] أي هن كالأمهات للمؤمنين، في وجوب تكريمهن

واحترامهنَّ، وحرمة النكاح منهن، فالآية واردة على التشبيه والتمثيل، أي هنَّ كالأمهات للمؤمنين.

(**الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ**) من قبيلة بني مخزوم، أسلم يوم فتح مكة، وكان من فضلاء الصحابة، أخوه أبو جهل اسمه (عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ) المخزومي، أسلم الحارث، وبقي أخوه الشقيق (أبو جهل) على كفره وضلاله، حتى سُمِّي فرعون هذه الأمة.

(**كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟**) أي كيف كان ينزل عليك جبريل بالوحي يا رسول الله؟
(**أَخْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلَصلةِ الْجَرَسِ**) أي يأتيني جبريل عليه السلام وله صوت يشبه صوت الجرس، حين يُدَقُّ، فأشعر بحضوره، ويكون له تأثير على قلبي شديد.

(**وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ**) أي هذه الحال أشدُّ الأحوال على نفسي، لأنه كان يأتيه بصوت شديد مفرع، والوحي له شدة وثقل على نفس الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

أي سننزل عليك قرآناً عظيماً جليلاً، له هيبة وروعة وجلال، لأنه كلام ربِّ العزة والجلال.

(**فَيَقْصِمُ عَلَيَّ**) أي ينجلي ما يغشاني من الكرب والشدة.

(**وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ**) أي فهمت وحفظت ما ألقاه إليَّ، من كلام ربِّ العزة والجلال.

(**يَتِمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا**) أي وفي بعض الأحيان يأتيني (جبريل) بصورة إنسان من البشر، وهو الغالب على نزول جبريل على الرسول ﷺ، ليأنس الرسول ﷺ برؤيته، ويطمئن بمجالسته، فيسمع كلام الله دون فزع، كما في حديث عمر: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر... الحديث، وأخبر الرسول ﷺ أصحابه، أنه كان (جبريل) جاءهم يعلمهم أمور دينهم).

قال ابن حجر: وتمثَّل المَلِكُ بصورة رجل، ليس معناه أنَّ ذات المَلِك انقلبت رجلاً، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة، تأنيساً للرسول ﷺ.

(**يَتَفَصَّدُ عَرَقًا**) أي يتصبَّب العَرَقُ منه، تخبر السيدة عائشة أنها كانت ترى الرسول ﷺ في أيام الشتاء الباردة، يتصبَّب العَرَقُ منه، من كثرة معاناة التعب والكرب، عند نزول الوحي عليه.

فإن قيل: لماذا لم يكن يأتيه جبريل بصورته المَلَكِيَّة؟

فالجواب: أنَّ الطبيعة البشرية لا تقوى على رؤية المَلَكِ على صورته المَلَكِيَّة، وقد ثبت في الصحيح أن (جبريلَ) كان له ستمائة جناح، وأن الرسول ﷺ حين طلب رؤيته بصورته المَلَكِيَّة، فتح جناحين فقط، فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، رآه ﷺ قَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ، وَرَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ، فَأَغْمَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فكيف لو رآه بستمائة جناح؟ لذلك كان يأتيه بصورة رجل من الناس، أو بصورة رجل من الصحابة، اسمه (دحية الكلبي).

ما يستفاد من الحديث

- الأول:** فيه أنَّ الوحيَ كان يأتي النبي ﷺ على صفتين:
- الأولى:** أشدُّ من الأخرى، وهي أنه يأتيه وله صوت شديد مفرع، ولذلك قال ﷺ: «وهو أشدُّ عليَّ».
- والأخرى:** أنه كان يأتيه بصورة رجلٍ من البشر، فيُلقي عليه الوحيَ، وكانت هذه أيسرَ.
- الثاني:** وفيه إثباتُ وجود الملائكة، ردًّا على من أنكرهم، من الملاحدة والفلاسفة.
- الثالث:** وفيه أنَّ الصحابة كانوا يسألون الرسول ﷺ، عن كثير من الأمور التي يجهلونهم، فيجمعهم الرسول ﷺ ويعلمهم، وكانت طائفة تسمع، وأخرى تسمع وتبلغ، حتى أكمل الله دينه بطريق الوحي.
- الرابع:** وفيه الدلالة على أنَّ المَلَكَ، له قدرة على التشكُّل، بما شاء من الصور. وانظر عمدة القاري للعيني ٤٦/١.

بابُ ذكرِ (أَوَّلُ بدءِ الوحي)

٣ - عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَأَنَّ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَأَنَّ يَخْلُو بِغَارِ جِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّنُ

فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَنْزَوُدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا.

حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ جِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ!! قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾».

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجِفُ فُؤَادَهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي. فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِيَخْدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي. فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَتَّصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدٍ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرَفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ.

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوْ مُخْرِجِيْ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ، أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْسُبْ وَرَقَةَ أَنْ تُوفِّيَ، وَفَتَرَ الْوَحْيَ).

[الحديث أطرافه في: ٣٣٩٢، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤٩٥٧، ٦٩٨٢]

شرح الألفاظ

(الرؤيا الصالحة) المراد بها الرؤيا في المنام الصادقة يراها ﷺ، فتأتي جليّة واضحة، مثل انفلاق نور الصباح، وإنما ابتدئ الوحي بالرؤيا الصادقة، التي ليست من

(اختلاط الأحلام)، لئلا يفاجئه الملك بالنبوة، فلا تحتمله قوَّته البشرية، وليكون تمهيداً وتوطئة لنزول الملك عليه في اليقظة.

(حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ) أي حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلْوَةُ وَالْعَزْلَةُ، فكان يذهب لغار حراء، يتعبَّد ربَّه فيه أياماً عديدة، والسرُّ في هذه الخلوة: هو فراغ القلب عن التعلُّق بغير الله عزَّ وجلَّ، والبُعْدُ عن شواغل الدنيا، كما أنَّ الاعتكاف في المسجد مشروع، لصفاء النفس، والتفرُّغ لعبادة المولى جلَّ وعلا.

(فِيْتَحَنَّتْ فِيهِ) أي يتعبَّد ربَّه في الغار، وقد فسَّره في الحديث بالتعبَّد، فقال: (وهو التعبَّد) وهو ما يُعرف في مصطلح الحديث: باسم (المُدرِّج) في الحديث، وهو من تفسير الزُّهري.

قال في نظم البيقونية:

والمدرجات في الحديث ما أتت من بعض ألفاظ الرواة اتَّصَلَتْ
(بِنَزْعٍ إِلَى أَهْلِهِ) أي قبل أن يرجع إلى بيته، عند زوجه السيدة (خديجة بنت خويلد) رضي الله عنها.

(وَيَتَزَوَّدُ لَذَلِكَ) أي يأخذ معه الزاد من الطعام والشراب، وكانت خلوته عليه السلام في شهر رمضان، ولذلك كان ابتداء نزول القرآن عليه في رمضان، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي ابتداء نزوله فيه، لأن نزوله دام ثلاثاً وعشرين سنة.

(حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ) أي الأمر الحق وهو الوحي الذي جاءه به جبريل عليه السلام، وتنزلت معه آيات الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿وَأَنزِلْنَا نَزِيلًا رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

(مَا أَنَا بِقَارِيٍّ) أي لا أحسن القراءة، لأنه ﷺ كان أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، زيدت فيها الباء لتأكيد النفي، و(ما) نافية، ولو كانت استفهامية، لم يصلح دخول الباء، لأن الاستفهامية لا يدخلها الباء، تقول: ما أنا قارئ؟ أي ماذا أقرأ؟

(فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي) أي ضمَّنِي إِلَى صدره ضِمَّةً شديدة، حتى بلغ مني الجهد مبلَّغَه، وإنما فعل به جبريل ذلك ثلاث مرات، ليقوى قلبُ النبي ﷺ على تقبُّل الوحي، والاستعداد لهذا الخطب الجليل، بما يُلقى إليه من نور المعرفة، والقرآن.

(ثُمَّ أَرْسَلَنِي) أي أطلقني، ثم قال لي: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] أي اقرأ يا محمد مستعيناً باسم ربك، لا تقرؤه بمعرفتك ولا بقوَّتِكَ، ولكنَّ بحول ربك وإعانتِهِ، فهو يعلمك ولو كنت أمياً، لا تعرف القراءة والكتابة، وهذه الآيات الخمس

المباركات، هي أول القرآن نزولاً على خاتم الأنبياء ﷺ، وهي أول اتصال السماء بالأرض، وأول نور الوحي الإلهي للرسول ﷺ.

(يَرْجِفُ فؤاده) أي يخفق قلبه ويضطرب، لما حصل له مع الملك (جبريل)، ومن الفزع الذي أصابه من هول الموقف شدته.

(فقال زملوني زملوني) أي لفوني بالغطاء واللحاف، فلفوه حتى ذهب عنه الخوف، ثم أخبر السيدة خديجة بما حصل له في غار حراء، وقال لها: «لقد خشيت على نفسي، من شدة الرعب والفزع»، وهذا يحدث للطبيعة الإنسانية، قبل أن يتحقق رسول الله بأنه نبي، يوحى إليه من رب العزة والجلال.!

(والله ما يخزيك الله أبداً) أي قالت له خديجة: والله لن يهينك الله، ولن يذلّك، لما عرفته عنه ﷺ من مكارم الأخلاق، وجميل الإحسان للعباد، وكأنها تقول: لا تخشى على نفسك، فإنك محوط بلطف الله وعنايته.

(تحمل الكل) أي تحمل الضعيف، المحتاج إلى العون والمساعدة.

(وتكسب المعدوم) أي تُعين الفقير المعدّم، فتنقذه من الفقر والهلكة، بما تمنحه من المال، قال أعرابي يمدح إنساناً: كان أكسبهم لمعدوم، وأعطاهم لمحرّوم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

(وتقرّي الضيف) أي تُكرم الضيف بأنواع المحاسن والكرامات.

(وتعين على نوائب الحق) أي تُعين من وقعت عليه مصيبة، أو ابتلي بكارثة من الكوارث، جمع «نائبة» وهي المصيبة، واللفظة جامعة لفنون الخير.

استدلالٌ بديعٌ رائع

استدلّت خديجة رضي الله عنها، على أنّ من كانت فيه هذه الخصال الفريدة، والمكارم الحميدة، لا يمكن أن يخذله الله أبداً، أو يسلب عليه وساوس الشيطان، بل لا بدّ أن يكون ما جاءه، كرامة له من الله تعالى، ويا لها من امرأة عاقلة رشيدة! قوّت نفسه، وشدّت عزمته للمضيّ في تحمّل ما لاقاه من شدة، وأقسمت له مؤكدة القسم بقولها: «كلاً والله لا يخزيك الله أبداً» ثم ذهبت به إلى ابن عمّها «ورقة بن نوفل»!!

(هذا الناموس) المراد بالناموس: (جبريل) عليه السلام، أي هذا هو الملك (جبريل) الذي ينزل بالوحي على رُسُل الله، وهو الأمين على الوحي الإلهي، أنزله الله عليك كما أنزله على «موسى بن عمران» عليه السلام.

(لِيتَنِي فِيهِ جَدْعًا) أي يا ليتني أكون شابًا حين يُخرجك قومك، لأكون لك مناصراً، على تبليغ الدعوة إلى الله، وأصل الجَدْع: الصغيرُ من العَنَمِ.

(أَوْ مُخْرِجِيْ هِم؟) استفهام فيه معنى الاستبعاد!؟، استبعد النبي ﷺ أن يخرجهُ قومه من مكة، لسبب موجب، لأنه كان محبوباً عندهم، ومشهوراً بالصدق والأمانة، فكيف يُخرجونه على ما هو عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات!؟

(نَصْرًا مُّؤَرَّرًا) أي لئن عشتُ إلى زمانٍ بعثتُك، وإكرام الله لك بالنبوة، لأنصركُ نصرًا قويًا، مأخوذ من الأَرَز بمعنى القوة، قال تعالى: ﴿ أَشَدُّ بِهِ أَزْرًى ﴾ [طه: ٣١].

(لَمْ يَنْشَبْ) أي لم يلبث ورقةً زماناً طويلاً، حتى توفاه الله تعالى.

(وَفَتَرَ الْوَحْيَ) أي أبطأ الوحي وتأخر نزوله على رسول الله ﷺ مدّة من الزمان.

ما يستفاد من الحديث

في هذا الحديث الشريف فوائد عديدة نذكر بعضها:

- الأول:** فيه أنّ الرؤيا التي يراها النبي في منامه، من جملة (أنواع الوحي).
- الثاني:** وفيه مشروعية اتخاذ الزاد، للبعيد عن أهله، فقد اتّخذهُ سيّد المتوكّلين ﷺ.
- الثالث:** وفيه أنّ أول ما نزل من القرآن الآيات الخمس ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ... ﴾ [العلق: ١ - ٥].
- الرابع:** وفيه الحثُّ على التعليم، وتكراره له ثلاثاً، كما فعله جبريل مع الرسول عليه الصلاة والسلام.
- الخامس:** وفيه افتتاحُ القراءة وسائر الأعمال بِبِسْمِ اللَّهِ، لقوله سبحانه: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾.
- السادس:** وفيه استحبابُ تأنيس من نَزَلَ به أمرٌ مُّقْرَع، بتيسيره عليه، وتهوينه لديه.
- السابع:** وفيه أنّ مكارم الأخلاق وأعمال الخير، سببٌ للسلامة من مصارع الشرّ والسوء.
- الثامن:** وفيه جوائز مدح الإنسان في وجهه، لتطمين قلبه، وتهدئة رَوْعِهِ.
- التاسع:** وفيه أنّ من نَزَلَ به أمرٌ شَغَلَ باله، يُستحبُّ له أن يُطْلِع عليه، من يشقّ بنصحه ورأيه.
- العاشر:** وفي الحديث أبلغ دليل على كمال خديجة رضي الله عنها، وزجاجة

عقلها، وعَظَمَ فقهها في الدين، فقد طمأنَّتْ قلبَ النبي ﷺ، بحفظ الله له، من جميع المخاوف والشرور، بما أكرمه الله به من الشَّمالِ الفريدة، والمكارم الحميدة.

تنبيه لطيف

لم ير النبي ﷺ جبريل عليه السلام في صورته المَلَكِيَّة، التي خلقه الله عليها، إلا في موطين:

الأول: في فترة الوحي كما في حديث جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (بيننا أنا أمشي، إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بجرء، جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زملوني...) الحديث رواه البخاري.

الثاني: حين عُرِجَ به ﷺ إلى السموات العلى، رأى جبريل عليه السلام في صورته المَلَكِيَّة، له (ستمائة جناح)، وذلك عند سدره المنتهى، لقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣، ١٤].

(نزلة أخرى) أي مرة أخرى، قالت عائشة: (رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام مرتين) أخرجه البخاري.

وما عدا ذلك فقد كان جبريل يأتيه بصورة رجل من البشر، أو أعرابي من الأعراب، أو بصورة (دحية الكلبي) أحد الصحابة الكرام.

بابُ (فترة الوحي)

٤ - عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه، أنه قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: (بينما أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بجرءٍ جالسٍ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زملوني زملوني!! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۖ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْخَزَّافُ حَزَزْ ۖ فَحَمِي الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ﴾.

[الحديث أطرافه في: ٣٢٣٨، ٤٩٢٢، ٤٩٢٣، ٤٩٢٤، ٤٩٢٥، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤، ٦٢١٤]

شرح الألفاظ

(**الملك الذي جاءني**) يريد به جبريل عليه السلام، لأنه هو الذي كان ينزل بالوحي على رسول الله ﷺ، ويؤكدده قوله ﷺ (جاءني بحراء) ولم يكن الذي جاءه في غار حراء، إلا «جبريل» عليه السلام.

(**فَرُجِعْتُ منه**) أي فزعْتُ، ودخل إلى قلبي الخوف منه، لأنه رآه على كرسي، قد ملأ ما بين السماء والأرض.

(**رَمَلُونِي**) أي لَفُونِي وغطُونِي بلحاف، وفي رواية (دَثَرُونِي) وهي موافقة لنزول سورة المدثر ﴿يَأَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿[المدثر: ١، ٢] أي حذِر من العذاب من لم يؤمن بك من قومك.

(**فحمي الوحي**) أي تتابع الوحي واستمر نزوله، بعد انقطاعه فترة من الزمن.

توضيح وبيان

هذا الحديث الذي رواه جابر، يدل دلالة واضحة، على أن سورة المدثر نزلت بعد سورة: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] لقوله ﷺ: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» ومعلوم عند جمهور أهل العلم، أن جبريل هو الذي نزل على رسول الله ﷺ، حينما كان في غار حراء، ونزل عليه بخمس آيات من سورة العلق ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]. فمن زعم أن سورة «المدثر» نزلت قبل سورة «العلق» فقد أخطأ، وحجته ما جاء في الرواية (فرجعت فقلت: رَمَلُونِي) فنزلت سورة المدثر ﴿يَأَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿فإن هذه السورة، نزلت بعد مدة من انقطاع الوحي، فتدبر الأمر والله يراكم.

سبب فتور الوحي

أما سبب فتور الوحي زمنًا، فهو ما أصاب النبي ﷺ من شدة الرُّوع، أول نزول الملك «جبريل»، فتأخر الوحي عليه، ليذهب عنه هذا الخوف والفرع، وليحصل له التشوق إلى عودة نزول «جبريل» عليه بعد أن سكن روعه.

ما يُستفاد من الحديث

أولاً: فيه انقطاع الوحي عن الرسول ﷺ مدة من الزمن، لقول الراوي: وهو يحدث عن فترة الوحي.

ثانياً: وفيه تقوية قلب النبي ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]

ثالثاً: وفيه أن رؤية المَلَك بصورته الملكية، التي خلقه الله عليها، لا قدرة للإنسان على رؤيتها، ولذلك فرع النبي ﷺ منها.

رابعاً: وفيه أن نزول سورة المدثر، كان بعد نزول أول الآيات من سورة العلق.

باب (معالجة النبي ﷺ من شدة التنزيل)

٥ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿ قَالَ: جَمَعَهُ لَهُ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِغْ قُرْآنَهُ ﴾، قَالَ: فَاسْتَمِعَ لَهُ وَأَنْصَبَتْ ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ، إِذَا أَنَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَرَأَهُ).

[الحديث أطرافه في: ٤٩٢٧، ٤٩٢٨، ٤٩٢٩، ٥٠٤٤، ٧٥٢٤]

شرح الألفاظ

(يُعَالِجُ شِدَّةً) المعالجة: محاولة الشيء بمشقة، أي يناله ﷺ مشقة من ترديد القرآن مع جبريل، حين يقرؤه عليه، وذلك لأنه يريد الاستماع لجبريل، وفي الوقت نفسه يريد أن يتلوّه معه، لئلا يضيع عليه شيء من القرآن، فَأَنْزَلَ اللَّهُ

تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿[القيامة: ١٦، ١٧].

(يَحْرُكُ شَفْتِيهِ) أي كان ﷺ حين يقرأ القرآن، يحرّك شفّتيه، فيحصل له شدة، لأنه يريد أن يقرأ، ويستمتع لقراءة جبريل.

(فَأَنَا أَحْرَكُهُمَا) جملة اعتراضية من كلام ابن عباس، وفائدتها: توضيح كيفية تحريك النبي ﷺ شفّتيه، عند تلاوة القرآن، زيادة في الوصف والبيان.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي لا تحرك يا أيها الرسول لسانك بتلاوة القرآن، عندما يقرؤه عليك جبريل، لتعجل بحفظه، بل استمع لقراءته، وأنصت.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي علينا أن نجمعه في صدرك، فتحفظه وتقرأه متى شئت، فلا يضيع عنك منه شيء، وهذه ضمانّة من الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، بحفظه القرآن كاملاً في صدره الشريف.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْفَعْ قُرْآنَهُ﴾ أي فإذا أنزلناه عليك، وقرأه عليك جبريل، فاستمع لقراءته، حتى ينتهي من القراءة، نسب القراءة إليه تعالى (قَرَأْنَاهُ) أي قرأه جبريل؛ لأن جبريل مبلّغ عن الله عزّ وجلّ وخيّ، وكتابه، فكأنّ قراءة (جبريل) قراءة من الله لرسوله، لأنها بأمره سبحانه، فكأنه هو القارئ على الرسول ﷺ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي علينا أن نوضّح معانيه لك، إذا أشكل عليك شيء من معانيه.

قال الإمام العيني:

كان رسول الله ﷺ إذا تلى عليه الوحي، نازع جبريل عليه السلام القراءة، ولم يصبر إلى أن يُتمّها، مسارعة إلى الحفظ، وخوفاً من أن يتفلّت منه، فأمر ﷺ أن يستمع له، ملقياً إليه بقلبه وسمعه، حتى ينتهي جبريل من القراءة، وضمن الله له، أن يجعله محفوظاً في صدره. اهـ. عمدة القارئ للعيني.

وقال الحافظ ابن كثير: أمره الله عزّ وجلّ، إذا جاءه الملك بالوحي، أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن يُبينه له، ويفسّره ويوضّحه. اهـ. تفسير ابن كثير.

تنبيه لطيف

أقول: هذه الآية تشبه قول الله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤].

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه حرصُ الرسول ﷺ الشديدُ على حفظ القرآن، حتى لا يضيع عليه شيء منه .

الثاني: وفيه ضمانُ الله عزَّ وجلَّ له بحفظه، وفهم ما أشكل عليه من معانيه .

الثالث: وفيه فضلُ الله على عباده المؤمنين، بتيسير حفظ القرآن ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧] .

الرابع: وفيه توضيح الأمور الشرعية، باستعمال أدوات التوضيح، كقول ابن عباس: فأنا أحرَّكهما لكم، كما كان رسول الله ﷺ يحركهما .

باب (مدارسة جبريل للرسول ﷺ في رمضان)

٦ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ).

[الحديث أطرافه في: ١٩٠٢، ٣٢٢٠، ٣٥٥٤، ٤٩٩٧]

شرح الألفاظ

(أَجْوَدُ النَّاسِ) أي أكثر الناس بذلاً وعطاءً، من الجود بمعنى البذل والعطاء، وهو أفعل تفضيل، ومعناه أسخى الخلق، كَرَمًا وجوداً .

(فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ) أي يقرأ عليه القرآن؛ في كل ليلة من ليالي شهر رمضان، ويستمع جبريلُ إلى قراءة النبي عليه السلام، والمدارسةُ: مُفاعلة تكون من طرفين، فقد كان جبريلُ يقرأ، ورسولُ الله ﷺ يستمع، ثم يقرأ الرسول ﷺ وجبريلُ يسمع لقراءته، وهذه هي الطريقة المثلى لحفظ القرآن، أن يتناوب القارئ والمستمع التلاوة .

ولفظ (المدرسة) يدلُّ على المشاركة من الطرفين، فإنه أجمعُ لتثبيت الحفظ في القلب.

(أَجُودُ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ) أي كان الرسول عليه الصلاة والسلام، أجودَ بالخير والعطاء، من الريح المرسلة بالرحمة إلى العباد، ومعنى المرسلة أي المُطلقة، يعني أنه في الإسراع بالجود، أسرعُ من الريح، والرياح تأتي بالخير والمطر ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦] أي من المطر الذي به حياة البشر.

تنبيه لطيف هام

كان جبريلُ عليه السلام يتعاهدُ رسولَ الله في كل سنة، فيتذاكر معه القرآن في شهر رمضان، وينزل عليه من رمضان إلى رمضان، خصيصاً لمدرسة القرآن العظيم، فلما كان العام الذي قبض فيه رسولُ الله ﷺ، نزلَ عليه جبريلُ مرتين: مرةً في أول الشهر، ومرةً ثانية في آخر الشهر من رمضان، فقال الرسول ﷺ لابنته «فاطمة الزهراء»: (إنَّ جبريلَ كان ينزل عليَّ في رمضان مرةً واحدة، وقد نزلَ عليَّ في هذا العام مرتين، وما أراني إلا قد اقترب أجلي) أي وفاتي، وكان الأمر كما أخبر ﷺ، فقد انتقل إلى الرفيق الأعلى، بعد عودته من (حجّة الوداع)، ولم يدرك عليه الصلاة والسلام رمضان آخر بعد ذلك العام.

ما يُستفاد من الحديث

في الحديث الشريف فوائد عديدة، نذكر هنا بعضها:

الأول: وفيه الحثُّ على الجودِ والسَّخاء في كل وقت من الأوقات، لا سيما في شهر رمضان المبارك.

الثاني: وفيه زيارةُ الصالحين، وأهل الخير من المؤمنين، وتكرارُ الزيارة لهم، إذا كان المَزُور لا يكره ذلك.

الثالث: وفيه استحبابُ الإكثار من قراءة القرآن في رمضان، لأن الأجر يتضاعف فيه، إلى سبعين مرة، كما ورد به الحديث الصحيح.

الرابع: وفيه أنَّ تلاوة القرآن في رمضان، أفضلُ من سائر الأذكار، إذ لو كان مطلقُ الذِّكْرِ العام مثله، لفعلَه جبريلُ مع الرسول ﷺ.

الخامس: وفيه استحبابُ مدارسِ القرآن في رمضان، وسائر العلوم الشرعية، لأنه شهر العلم والتعليم، وشهرُ التفقه في الدين.

السادس: وفي الحديث إشارة إلى فضل الله على عباده، بإنزال القرآن العظيم، في هذا الشهر المبارك، ولذلك فَرَضَ الله صيامه على المؤمنين، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾ [البقرة: ١٨٥] ولم يفرض تعالى الصيام في غيره من أشهر العام، لعظمة هذا الشهر عند الله تعالى، لنزول كتابه المبين فيه.

تنبيه هام

قال الحافظ ابن حجر: كان ابتداء نزول القرآن الكريم في شهر رمضان، ولم ينزل كله في رمضان، بل نزل في فترة طويلة، هي مدة / ٢٣ / ثلاث وعشرين سنة، مدة (البعثة النبوية) وقد صحَّ عن ابن عباس قوله: (نَزَلَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فِي لَيْلَةِ الْقَدَرِ، ثُمَّ نَزَلَ مَفْرَقًا إِلَى الْأَرْضِ فِي ثَلَاثٍ وَعَشْرِينَ سَنَةً). اهـ فتح الباري.

فعلى هذا يكون للقرآن نزولان:

- ١ - نزول إلى بيت العزة في السماء الدنيا جملة واحدة.
- ٢ - ونزول إلى الأرض منجماً أي مفروقاً في ثلاث وعشرين سنة.

باب (كِتَابِ الرَّسُولِ ﷺ إِلَى هِرْقَلِ مَلِكِ الرُّومِ)

٧ - عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ هِرْقَلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَارًا بِالشَّامِ، فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَتَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَذْنُوهُ مِنِّي، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِيهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَأِئِلُ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَّبَنِي فَكَذَّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثُرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَّبْتُ عَنْهُ.
ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نُسِبُهُ فَيْكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا.
قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا.
قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضَعَفَاؤُهُمْ.
قَالَ: أَيْزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.
قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخَطَةً لِدِينِهِ، بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا.
قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا.
قَالَ: فَهَلْ يَعْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا؟
قَالَ: وَلَمْ تُمَكِّنِي كَلِمَةً أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.
قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ:
الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا، وَنَنَالُ مِنْهُ.
قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،
وَاتْرِكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَةِ.
فَقَالَ لِلتَّارِجَمَانِ: قُلْ لَهُ:

سَأَلْتُكَ: عَنْ نُسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فَيْكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ، تُبْعَثُ فِي نَسَبٍ قَوْمِهَا.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتِسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. !
وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.
قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.
وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا،
فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْذِرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.
وَسَأَلْتُكَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضَعَفَاءَهُمْ
اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيْرِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتُ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيْرْتَدُّ أَحَدٌ سَخِطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتُ أَنَّ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتُ أَنَّ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتُ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ.

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ، لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ.

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ (دَحِيَّةً) إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ، فَإِذَا فِيهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنِّي عَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ»، وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آرِبًا بَأَآ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَعَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخْبُ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ، وَأَخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أَخْرَجْنَا: لَقَدْ أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ!! فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيُظْهِرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ.

وَكَانَ ابْنُ النَّاطُورِ، صَاحِبُ إِبِلِيَاءَ وَهِرَقْلَ، أَسْقَفًا عَلَى نَصَارَى الشَّامِ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِبِلِيَاءَ، أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثِ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقِيهِ: قَدْ اسْتَكْرَمْنَا هَيْئَتَكَ، قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَاءً يُنْطَرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ، مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهَمُّكَ شَأْنُهُمْ،

وَكَتَبَ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ، فَبَقَّتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ.
 فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أَتَى هِرَقْلُ بَرَجِلٍ أُرْسِلَ بِهِ مَلِكُ عَسَانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَخْبِرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمْحَتَيْنِ هُوَ أَمْ لَا؟
 فَانْظُرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُحْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَحْتَتِنُونَ، فَقَالَ
 هِرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبِ لَهُ بِرُومِيَّةَ،
 وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمَصَ فَلَمْ يَرَمْ حِمَصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ
 مِنْ صَاحِبِهِ يُؤَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ.
 فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسَكْرَةٍ لَهُ بِحِمَصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِقَتْ،
 ثُمَّ أَطْلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ.
 وَأَنْ يَنْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتَبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى
 الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ وَأَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ، قَالَ:
 رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي أَنْفَا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ
 رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ) انتهى حديث
 البخاري.

[الحديث أطرافه في: ٥١، ٢٦٨١، ٢٨٠٤، ٢٩٤١، ٢٩٧٨، ٣١٧٤، ٤٥٥٣،

٥٩٨٠، ٦٢٦٠، ٧١٩٦، ٧٥٤١]

شرح الألفاظ

(هِرَقْلُ) هِرَقْلُ هو ملك الروم، كانت بلاد الشام تحت مملكته، وعاصمته كانت
 في مدينة (حمص) من بلاد الشام، اسمه (هِرَقْلُ) ولقبه (قَيْصَر) كما يُلقب ملك الفرس
 «كسرى» الذي كان يحكم بلاد العراق.

(فِي رَكْبٍ) أي في جملة جماعة من التجار كانوا في بلاد الشام، يرأسهم (أبو
 سفيان بن حرب) وكان أبو سفيان في ذلك الوقت مشركاً، والركب الجماعة جمع
 راكب، وهم أصحاب الإبل، العشرة فما فوقها، وكانوا في ذلك الحين ثلاثين رجلاً.

(فِي الْمَدَّةِ الَّتِي مَادَّ فِيهَا) أي في مدة (صلح الحديبية) الذي كان بين
 رسول الله ﷺ، وبين أبي سفيان والمشركين، وكانت في السنة السادسة، وكانت

مدّتها عشر سنين، ولكنهم نقضوا العهد، فغزاهم ﷺ سنة ثمانٍ من الهجرة، وفتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً!

(وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ) إيلياء: اسم لمدينة (بيت المقدس) التي فيها المسجد الأقصى، سمي «إيلياء» ومعناها في العبرية بيت الله المقدس، قال الفرزدق:

وَبَيْتَانِ بَيْتُ اللَّهِ نَحْنُ وَلَاتُهُ وَقَصْرٌ بِأَعْلَى «إِيلِيَاءَ» مُشْرِفٌ
وكان هرقل لما صرف الله عنه شرّ «كسرى» مشى إلى بيت المقدس، شكراً لله على ذلك.

(وَحَوْلُهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ) أي دعاهم هرقل إلى مجلسه في بلدة حمص، وحوله كبراء الرجال من الروم، الوزراء، والبطارقة، والقُسس، والرهبان.

(ودعا ترجمانه) أي الشخص الذي يترجم له الكلام، لأنه ما كان يعرف اللغة العربية.

(أَيْكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا) أي أيكم له قرابة متينة، بهذا الذي يزعم أنه رسول الله؟ سألهم هرقل عن ذلك، لأن القريب يعرف من أمر الشخص أكثر مما يعرفه البعيد.

(قال أبو سفيان: قلت: أنا) أي أنا أقربهم منه نسباً، لأن أبا سفيان من بني عبد مناف، وهو يجتمع مع رسول الله في النسب، لأن جدّ النبي ﷺ هو (عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف) وأبو سفيان من بني عبد مناف.

(أَدْنُوهُ مِنِّي) أي قَرَّبُوا أبا سفيان مني، واجعلوا من معه خلف ظهره، وكان ذلك دهاءً من هرقل، الذي اشتهر بالدهاء، ليعرف صدق أبي سفيان في حديثه، لأنه لو كذب فيمكن بإشارة من أصحابه، أن يعرف كذبه، ولو بإشارة بالعين.

(فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذَّبُوهُ) أي قال هرقل: سأسأل هذا الذي أمامي أسئلة عديدة، فإن كَذَبَ عليّ، وقال خلاف الواقع، فأخبروني ولو بالإشارة.

(أَنْ يَأْتِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ) أي لولا أن ينقلوا عليّ الكذب، لكذبتُ على محمد، لكنه خشي أن يفتضح أمام ملك الروم، فتمسك بالصدق خوفاً من رفاقته.

(لَتَشَجَمْتُ لِقَاءَهُ) أي لتكلفتُ المشقة في سبيل لقائه، وسافرت إليه.

وهنا سأل ملك الروم أبا سفيان أحد عشر سؤالاً، لم يكذب في واحدة منها، إلا في مسألة واحدة، أوردتها بالتلميح، لا بالتصريح، وهي قوله حين سأله هرقل: هل يَغْدِر؟ قلت: لا، ولكن بيننا وبينه الآن صلح وعهد، لا ندري ما سيفعل بنا في

المستقبل، قال أبو سفيان: ولم يمكُنِّي أن أدخل كلمة غير هذه الكلمة. يريد بقوله ذلك: أنه يمكن أن يغدر بنا في هدنته هذه!

وقفة عند الأسئلة وأجوبتها الدقيقة

أما الأسئلة التي سألتها (هرقل) لأبي سفيان، فهي تدلُّ على إدراك عميق، وفهم ثاقب، ولُنُصغ إليها وإلى أجوبتها:

- ١ - قال له: كيف نسبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، أي هو من أشرافنا.
 - ٢ - قال: هل قال هذا القول منكم أحد قبله؟ - يريد ادعاء النبوة - قلت: لا.
 - ٣ - قال: فهل كان من آبائه مَلِكٌ؟ قلت: لا.
 - ٤ - قال: هل أشرافُ الناس اتبعوه أم ضعفائهم؟ قلت: بل ضعفائهم.
 - ٥ - قال: هل يزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.
 - ٦ - قال: هل يرتدُّ أحد عن دينه سخطاً، بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. (سخطاً) أي كراهيةً وبغضاً لهذا الدين.
 - ٧ - قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ - أي قبل ادعاء النبوة - قلت: لا.
 - ٨ - قال: فهل يَغْدِرُ؟ - أي إذا كان بينكم وبينه عهد هل يغدر في عهده؟ قلت: لا، ونحن منه في مُدَّة - أي هُدنة - لا ندرى ما هو فاعلٌ بها؟ قال أبو سفيان: ولم يمكُنِّي كلمة أدخلها في كلامي، غير هذه الكلمة - هذه هي الدَّسِيسَةُ التي دسَّها في جوابه لهرقل - يريد نحن الآن معه في صلح، قد يكون منه غدر فيه!!
 - ٩ - قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم!
 - ١٠ - قال: فكيف كان قتالكم له؟ أي هل انتصر؟ أم انتصرتم عليه؟ قلت: الحربُ بيننا وبينه سِجَالٌ - أي مرَّةً نغلبُه ومرَّةً يغلبنا - ووضَّح معناها بقوله: يَنَالُ مَنَّا وننالُ منه، شبه المحاربين بالذين يستقون الماء، يستقي هذا دلوًّا، وهذا دلوًّا، مشيراً إلى ما وقع بين المسلمين والمشركين في غزوة بدر، ثم في غزوة أحد.
 - ١١ - قال: فماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واركعوا ما كان يعبد آباؤكم من الأوثان والأصنام، ويأمرنا بالصلاة، والصَّدق، والعفاف، والصَّلَة - يعني صلَّة الأرحام!!
- هذه هي الأسئلة التي سألتها مَلِكُ الروم لأبي سفيان.

أجوبة هرقل ملك الروم

وَنُصِتْ لَنَا الْآنَ إِلَى الْأَجُوبَةِ عَلَيْهَا مِنْ (هَرَقْل) عَظِيمِ مُلُوكِ الرُّومِ .

١ - قال لترجمانه: قل له: سألتك: عن نُسبِهِ، فذكرت أنه ذُو نَسَبٍ، - أي هو من أشرف قريش - وكذلك الرسلُ تُبعثُ في نَسَبٍ قومها .

٢ - وسألتك: هل قالَ هذا القولَ أحدٌ قبله؟ فذكرت أن لا، فقلتُ: لو كان أحدٌ قالَ هذا القولَ قبله، لقلتُ: رجلٌ يتأسى - أي يقتدي - بقولِ قيل قبله - أي يحبُّ التسلُّطَ والزعامةَ عليكم -!!

٣ - وسألتك: هل كان من آبائه من مَلِكٍ؟ فذكرت أن لا، فقلتُ: لو كان من آبائه أحدٌ من الملوك، لقلتُ: رجلٌ يطلبُ مُلكَ أبيه!!

٤ - وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال؟ - أي قبل أن يزعم النبوة - فذكرت أن لا، فعلمتُ أنه لم يكن ليدَّعِ الكذبَ على الناس، ثم يكذب على الله!! أي من المستحيل أن يترك أحدُ الكذبَ على الناس، ثم يكذبَ على الله، أعظمَ أنواعِ الكذب، فيدَّعي أنه رسولُ الله!!

٥ - وسألتك: هل أشرفُ الناس اتَّبعوه، أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتَّبعوه، وهم أتباعُ الرسل!!

٦ - وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمان حتى يتم!!

٧ - وسألتك: أيرتدُّ أحدٌ سخطاً لدينه، بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمانُ حين تُخالطُ بشائسته القلوبُ. يريد أن الإيمان حين يتذوق الإنسانُ حلاوته، لا يمكن أن يخرج منه، مهما كانت الأسبابُ والمغرياتُ.

٨ - وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسلُ لا تغدر!!

٩ - وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده، ولا تُشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف!! فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضعَ قدمي هاتين، وقد كنتُ أعلمُ أنه خارج، ولم أكنُ أظنُّ أنه منكم؟

ثم قال له: فلو أني أعلمُ أني أَخْلَصُ إليه، لتجشمتُ - أي تكلفْتُ - لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدميه!!

ما أعظم هذا الفهم؟ وما أروع هذا الاستنتاج؟!

نص كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم

ثم دعا هرقل بكتاب رسول الله ﷺ، فقرأه فإذا فيه:

من (محمد عبد الله ورسوله) إلى (هرقل) عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَّغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ، وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ!! فَمَا زِلْتُ مَوْقِنًا أَنَّهُ سَيُظْهِرُ حَتَّىٰ أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ، ثُمَّ أَذِنَ هِرْقَلُ لِعِظَمَاءِ الرُّومِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ: هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ أَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فُتُبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْضَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرْقَلُ ثَقَرَتَهُمْ وَأَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي أَنِفًا اخْتَبَرْتُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَىٰ دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرْقَلٍ فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ أَمْرِ هِرْقَلٍ.

شرح الألفاظ

(إثم الأريسيين) أي إن أعرضت عن الإسلام، فعليك ذنوب الفلاحين والزراعيين، لأن الأتباع يسيرون على دين ملوكهم ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْلَحُونَا السَّيِّئَاتِ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

(كثر عنده الصخب) أي كثر الحديث واللغط، وارتفعت الأصوات بالمخاصمة.

(أمر أمر ابن أبي كبشة) أي عظم شأن محمد، وإنما نسبوه إلى (أبي كبشة) لأنه أبوه من الرضاعة، ومرادهم انتقاص قدره ومقامه ﷺ.

(ليخافه ملك بني الأصفر) أي إن محمداً ليخافه ملك الروم وعظيمها.

(فما زلت موقناً) أي ما زلت على يقين بظهور دين الإسلام، حتى شرح الله صدري للإسلام، فأسلمت، رضي الله عنه وأرضاه.

ما يستفاد من الحديث الشريف

- ١ - فيه ملاطفة المخاطب، بكلام يشير إلى تعظيمه، ولو كان غير مسلم كما في قوله: (إلى عظيم الروم).
- ٢ - وفيه إلابة القول لمن يدعى إلى الإسلام كما قال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]
- ٣ - وفيه أنه لا يُبدأ الكافر بالسلام، لحديث: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام» وإنما يُعَمَّم التحية، كقوله: (سلام على من اتبع الهدى) كما فعل ﷺ مع هرقل.
- ٤ - وفيه النهي عن المسافرة بالقرآن إلى أرض العدو، وذلك في المصحف الكامل، دون الآية والآيتين فقد كتب الرسول ﷺ إلى هرقل ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].
- ٥ - وفيه دعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم، كما فعل ﷺ في دعوة الملوك والعظماء، في الكتب التي أرسلها لهم، يدعوهم فيها إلى الإسلام.
- ٦ - وفيه جواز مس المحدث والكافر كتاباً فيه آيات قرآنية، كالكتب الشرعية، والفقه، وكتب التفسير، إذا كان فيها آيات من القرآن، وحرمة مس المصحف لغير الطاهر.
- ٧ - وفيه استحباب البلاغة، والإيجاز في الكلام، وتحرّي الألفاظ الجزلة في المكاتبة، فإن قوله عليه الصلاة والسلام: «أَسْلِمَ تَسْلَمَ» في غاية الاختصار، ونهاية الإيجاز.
- ٨ - وفيه استحباب كتابة (أما بعد) في الكتب، والرسائل، وسائر الخطب والمقالات العلمية، كما هو المعتاد عند أهل العلم.
- ٩ - وفيه أن الإنسان يتحمّل وزر أتباعه، إذا كان سبباً لضلالهم، أو أنه مَنع وصول الهداية إليهم. لقوله ﷺ: (فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّنَ) أي الأتباع من المزارعين.
- ١٠ - وفيه شناعة وقباحتة الكذب، عند كل أمة، وفي كل دين، ولذلك قال هرقل: «ما كان محمد ليندع الكذب على الناس، ويكذب على الله؟!»
- ١١ - وفيه أن حب الرئاسة والزعامة، يمنع الإنسان عن الإيمان والهداية، لذلك

امتنع (هرقل) عن الدخول في الإسلام، ضناً بالملك، بعد أن أيقن بصدق رسالة محمد ﷺ.

١٢ - وفيه أن الدعوة إلى الإسلام، واجب المسلمين، ملوكاً وعامة، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

تنبيه هام لطيف

أرسل رسول الله ﷺ إلى عظماء وملوك العالم كُتُباً، يدعوهم فيها إلى الإسلام، منهم (هرقل) ملك الروم، و(كسرى) ملك الفرس، وعظيم بصرى، وغيرهم من الملوك والعظماء، أمّا (كسرى) فقد مزّق كتاب رسول الله ﷺ فدعا عليه الرسول ﷺ أن يمزقه الله شرّ ممزّق، فقتل بيد ولده وذهب ملكه، وأمّا (هرقل) فقد أيقن بصدق الرسول ﷺ، وقال في جوابه لأبي سفيان: (إن كان ما تقوله حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه - أي تحملت أنواع المشقة والعناء للاجتماع به - ولو كنت عنده لغسلت قدميه) وهذا اعتراف صريح منه، بأن الرسول ﷺ هو نبي آخر الزمان، وقد كان (هرقل) من أهل الكتاب، وهم يعرفون من كتبهم أنه سيبعث نبي يختتم الله به الرسالات السماوية كما أخبر تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ولكن حبّ الملك والزعامة، حال بينه وبين الإيمان بخاتم الأنبياء ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب الإيمان

بَابُ (بُنْيِ الْإِسْلَامِ عَلَى خَمْسٍ)

قال الإمام البخاري رحمه الله :

الإيمان: قولٌ، وفعلٌ، ويزيد وينقص، قال تعالى: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المائدة: ٣١] وقال سبحانه: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] والحب في الله، والبغض في الله، من الإيمان.

وكتب عمر بن عبد العزيز: (إنَّ للإيمان فرائضَ وشرائعَ، وحدوداً وسنناً، فمن استكملها، استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان).

وقال معاذ: اجلس بنا نؤمن ساعة!

وقال ابن عمر: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى، حتى يدع ما حاك في الصدر.

٨ - عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ).

[الحديث طرفه في: ٤٥١٥]

شرح الألفاظ

قول البخاري: (دعائكم): إيمانكم، هذا من تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧] أي ما يكثرث بكم ربي، ولا يُبالي بشأنكم، لولا إيمانكم وتضرعكم له، ولولا ذلك لكنتم كسائر البهائم سواء بسواء.

(الإيمان) لغة: معناه التصديق القلبي، وشرعاً: تصديق النبي ﷺ فيما جاء به عن ربه، وهو يزيد وينقص، يزيد بالأعمال الصالحة، وينقص بالمعاصي والآثام.

(بُنِيَ الْإِسْلَامُ) مأخوذ من البناء يُقال: بنى فلان داراً أي شيدها، وأقام عمرانها،

شبه الإسلام ببناء فخم ضخم، يقوم على دعائم، محكمة متينة، إذا ذهبت هذه الدعائم، تهدم البناء، وانحلت الأركان، وهو تمثيل رائع بديع.

(شهادة أن لا إله إلا الله) أي الشهادة لله بالوحدانية، وللرسول ﷺ بالنبوة والرسالة.

(وإقام الصلاة) أي أدائها على الوجه الكامل، بأركانها، وواجباتها، وآدابها، مع الخضوع والخشوع، ولهذا جاء التعبير بلفظ الإقامة في جميع الألفاظ (أقاموا الصلاة) و(يقيمون الصلاة) (والمقيمون الصلاة).

(وإيتاء الزكاة) أي دفع الزكاة إلى الفقراء والمساكين، وسائر مصارف الزكاة الثمانية، عن طيب نفس، والحكمة من الزكاة: دَفْعُ الشَّحِّ عَنِ النَّفْسِ ﴿وَمَنْ يُؤَقِّ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ١٠].

(وصوم رمضان) أي وصيام شهر رمضان المبارك، الذي أنزل فيه القرآن.

(والحج) أي وحج بيت الله الحرام، لمن استطاع إليه سبيلاً.

ولم يذكر (الجهاد) لأنه فرض كفاية، إذا قام به البعض، سقط عن الباقين.

فائدة هامة

إنما بدأ الحديث بالصلاة بعد الشهادة، لأن الصلاة أهم أركان الإسلام، وقد شبهها رسول الله ﷺ بتشبيهه رائع بديع، مثل لها بإنسان له أعضاء: له (يدان، ورجلان، وعينان، ورأس)، فإذا قُطعت يده لا يموت، بل يصبح ناقصاً، كذلك إذا قُطعت رجله، يصبح أعرج ولا يموت، وإذا قُطعت عينه يصبح أعمى، أما إذا قُطعت رأسه، فإنه يفقد الحياة بالكلية، ولهذا قال الرسول الكريم: (ألا لا دين لمن لا صلاة له، إنما منزلة الصلاة من الدين، كمنزلة الرأس من الجسد).

سبب ذكر ابن عمر للحديث الشريف

ذكر البخاري في كتاب التفسير، سبب ذكر ابن عمر لهذا الحديث الشريف، وهو: (أن رجلاً قال لعبد الله بن عمر: ما حملك على أن تحج عاماً، وتعتز عاماً، وتترك الجهاد؟) فذكر له هذا الحديث.

تمثيل رائع بديع

ورد التمثيل البديع، في هذا الحديث لأركان الإسلام، بتشبيهه ببناء قصر، فخم

ضخم، يعتمد على دعائم وقواعد متينة، هي خمسة أعمدة، إذا سقط منها عمود، أصبح القصر على خطر، هذا القصر له في وسطه عمود ضخم كبير، هو الذي يحمي القصر كله، لأنه هو الأساس الذي يستند عليه البناء، هو (الشهادة بالوحدانية لله) وتصديق الرسول ﷺ والبقية تدعم هذا البناء (الصلاة، الصوم، الحج، الزكاة) فإذا تهدم الأساس، تهدم جميع البناء، ويا له من تمثيل رائع، ممن أعطي جوامع الكلام، صلوات الله وسلامه عليه.

وجاء في صحيح مسلم، تقديم الصوم على الحج، فقال رجل: (والحج، وصيام رمضان) فقال ابن عمر: لا، صيام رمضان، والحج، هكذا سمعته من رسول الله ﷺ، وهذا محمول على ضرورة المحافظة على اللفظ الذي يسمعه الراوي من رسول الله ﷺ، وإن كان يصح رواية الحديث بالمعنى.

بَابُ (شُعَبِ الْإِيمَانِ وَفُرُوعِهِ)

٩ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ).

شرح الألفاظ

(بِضْعٌ) البضع من الأعداد هو: من الثلاثة إلى العشرة، تقول: في السفينة بضعة رجال، فقد يكونوا ثلاثة، أو أكثر، كسبعة، أو تسعة، قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] قال المفسرون: مكث يوسف في السجن سبع سنوات.

(وَالْحَيَاءُ) الحياء لغة: تغير وانكسار يعتري الإنسان، من خوف ما يُعاب عليه.

وفي الشرع: خلق كريم، يبعث على اجتناب القبيح، من الأقوال والأفعال.

(شعبة من الإيمان) أي فرع عظيم من فروع الإيمان، ينبع من أخلاق المؤمن الصادق في إيمانه، وقد وضح ﷺ حقيقة الحياء، بقوله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء!!» فقالوا: إنا والحمد لله لنستحيي من الله!! فقال ﷺ: «من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما حوى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر

الموت والبلى، من فعل ذلك، فقد استحيا من الله حقَّ الحياء» أخرجه الترمذي.

ما يستفاد من الحديث

١ - شَبَّةٌ ﷺ الإيمان بشجرة عظيمة ذات أغصان، وفروع عديدة، أحد هذه الأغصان الحياء الذي كلُّه خير، ولا يأتي إلا بالخير، ولهذا ورد في حديث الترمذي «إذا لم تُسْتَحَ فاصنع ما شئت».

٢ - وفي رواية البخاري: «الإيمان بضْعٌ وستون شعبة» وورد في صحيح مسلم بلفظ «الإيمان بضْعٌ وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق - أي تنحيته عن الطريق - والحياء شعبة من الإيمان».

فائدة

إن قيل: لماذا أفرد الحياء بالذكر من سائر شُعَب الإيمان، وهي كثيرة ووفيرة؟ والجواب: أنَّ الحياء خُلِقَ يدعو إلى سائر الفضائل، فإنَّ الإنسان يخشى فضيحة الدنيا، وعذاب الآخرة، فينزجر بالحياء عن المعاصي، ويمتثل الطاعات التي أمر الله بها، ولهذا خصَّه بالذكر.

قال الطيبي: وإنما أفرد الحياء بالذكر، بعد دخوله في شعب الإيمان، للإشارة إلى كثرة فروع الإيمان، كأنه يقول: هذه شعبة واحدة من شُعَبِهِ، فهل تُحصى شُعْبُهُ كُلُّهَا؟ هيهات هيهات، فإنَّ البحر لا يمكن أن يُعرف.

تنبيه هام

في الحديث إشارة إلى أن مراتب الإيمان متفاوتة تفاوتاً كبيراً، فأعلى هذه المراتب (مرتبة التوحيد) الذي هو أصل لجميع الأعمال، حيث لا يُقبل عملٌ من أحد، حتى تُصَفَى عقيدته، وَيُحَسَّنَ إيمانه، وأقلُّها رفعُ الأذى عن الطريق.

فائدة مهمة

الحديث رواه (أبو هريرة) رضي الله عنه، وهو أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ لأنه كان يلزم الرسول ﷺ في جميع أوقاته، وقد كُتِبَ رسول الله ﷺ بهذه الكنية (أبو هريرة) لهرة كان يلعب بها، واسمه الحقيقي (عبد الرحمن بن صخر) من

قبيلة دؤس، وهو من كبار الصحابة، الذين حفظوا للأمة الإسلامية هذا الركن العظيم، من الشريعة المطهرة، ألا وهي (السنة النبوية) التي نقلها لنا هؤلاء الحُفَاطُ الثقات، من صحابة رسول الله ﷺ، ومن جاء بعدهم من المحدثين الأخيار، ولقد شهد له رسول الله ﷺ بالحرص على الحديث، ودعا له بثبات الحفظ، فلم يسمع شيئاً من رسول الله ﷺ إلا حَفِظَهُ، ببركة دعائه له صلوات الله وسلامه عليه. أسلم في السنة السابعة من الهجرة عام خيبر، وتوفي بالمدينة المنورة سنة (٥٧) هجرية ودُفِنَ بالبقيع، وقبره معروفٌ إلى زماننا، وله قصةٌ عجيبةٌ مع أمه فيها معجزة نبوية لرسول الله عليه الصلاة والسلام، نذكرها لما فيها من التذكير، بمعجزات أشرف المرسلين صلوات الله وسلامه عليه.

معجزة نبوية لخاتم الأنبياء والمرسلين

قصة عجيبة لأبي هريرة رضي الله عنه

لأبي هريرة قصة عجيبة وغريبة، فقد كانت أمه مشركة، وكان يدعوها بين الحين والحين إلى الإسلام، فتأبى عليه، فدعاها يوماً إلى الإسلام، فسبَّت الرسول وشتَّمته، فذهب إلى الرسول عليه السلام، وهو يبكي من شدة الحزن، فقال له ﷺ: «ما لك يا أبا هريرة؟ لماذا تبكي؟» فقال: يا رسول الله كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوته اليوم إلى الإسلام، فأسمعتني فيك ما أكره، فادعو الله أن يهدي قلبها للإسلام!! فقال الرسول الكريم: «اللهم اهد قلب أم أبي هريرة للإسلام».

قال: فاستبشرت بدعوة رسول الله ﷺ، فرجعتُ إلى بيتي فلما أردتُ أن أدخله، سمعتُ خشخشة الماء - أي صوت الماء يُسكب - فقالت لي أمي: على مهلك يا أبا هريرة، فلما انتهت من الغسل، فتحت الباب، ثم قالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله!

قال أبو هريرة: فرجعتُ إلى رسول الله، وأنا أبكي من شدة الفرح، فقال لي ﷺ: «ما لك يا أبا هريرة؟» قلتُ: أبشُر يا رسول الله، فلقد استجاب الله دعاءك، وهدى قلب أم أبي هريرة للإسلام! فحمد الرسول ربّه وأثنى عليه.

قال أبو هريرة: فقلت: يا رسول الله أدع الله أن يحببني أنا وأمي إلى المسلمين، وأن يحبب المسلمين إلينا، فدعا لي الرسول ﷺ فقال: «اللهم حبب أبا هريرة وأمّه إلى المسلمين، وحبب المسلمين إليهما».

قال أبو هريرة: فما رأيي مسلم، ولا سمع بي مسلم، إلا أحببني أنا وأمي.

باب (حقيقة المسلم وحقيقة المهاجر)

١٠ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ). [الحديث طرفه في: ٦٤٨٤]

شرح الألفاظ

(المسلم) المراد بالمسلم: المسلم الكامل الإسلام، وليس معناه أن من لم يسلم المسلمون من لسانه ويده، ليس بمسلم، وإنما الغرض التنبيه على حقيقة الإسلام، الذي فيه نجاة الإنسان من عذاب الله، كقولهم: فلان الرجل، أي الكامل في الرجولة والعظمة.

(من سَلِمَ المسلمون من يده) لا يُراد باليد الجارحة، وإنما يعُم كل ما يصدر من الإنسان، من عمل، سواء كان باليد، أو باللسان، أو بالفعل الضار، كالسُّطو، والظلم، وسوء الكلام.

(والمهاجر) الأصل في الهجرة: ترك الوطن، والخروج منه طلباً لرضى الله، كما فعل الصحابة حين تركوا مكة، وهاجروا للمدينة المنورة.

(مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ) أي ترك ما حَرَّمَ الله عليه، فهذه هي الهجرة الحقيقية، التي يحبها الله ورسوله.

تنبيه هام

هذا الحديث الشريف، من جوامع كلمه ﷺ، وفصيح ألفاظه، فقد جَمَعَ ﷺ بين أعمال الخير والفلاح، في تعريف مختصر، ووضَّح حقيقة المسلم الكامل، الذي يستحق أن يُوصف بأنه مسلم، كامل في العقيدة، صادق في الإيمان، وهو الذي يسلم المسلمون من ضرره وأذاه.

قال الخطابي: معناه أن المسلم الممدوح، من كان متصفاً بهذه الأوصاف، الكريمة، وهو الذي ينجو المسلمون من شره وأذاه، وليس معناه أن من لم يسلم

الناس من أذاه، ليس بمسلم، أو أنه خارج عن الملة، وكذلك المهاجر الممدوح، هو الذي جَمَعَ إلى هجرانه وطنه، هَجَرَ ما حَرَّمَ الله تعالى عليه.

فائدة مهمة

هذا الحديث قاله ﷺ لمن سألَه عن الإسلام، كما في رواية ابن عمر (أن رجلاً سأل رسولَ الله ﷺ: أيُّ المسلمين خير؟) فذكر ﷺ الحديث!! .
وجاءت زيادة رواها ابنُ حبانَ والحاكمُ، وهي: «والمؤمن من أَمِنَهُ النَّاسُ على دمائهم وأموالهم» وكفى بهذا توضيحاً لحقيقة الإسلام والإيمان.

ما يستفاد من الحديث

- ١ - فيه الحثُّ على ترك أذى المسلمين، بكل ضروب الأذى، القولية، والعملية، والفعلية، كالشتم، والضرب، والسخرية، والاستهزاء، وأمثال ذلك.
- ٢ - وفيه حُسْنُ التخلُّق مع الناس، ولهذا فسَّرَ الحسن البصريُّ الأبرارَ، بقوله الأبرارُ: هم الذين لا يؤذون الذرَّ، ولا يُحبُّون الشرَّ.
- ٣ - وفيه ضرورةُ إحسان المعاملة مع المخلوق والخالق، كما قال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

باب (أيُّ الإسلام أفضل؟)

- ١١ - عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: (مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ).

شرح الألفاظ

(أيُّ الإسلام أفضلُ) أيُّ أيُّ شُعَبِ الإسلام أفضل؟ وأيُّ أعماله أحبُّ عند الله تعالى؟
(من سَلِمَ المسلمون) أي من لم يصل إلى المسلمين، من شرِّ لسانه ويده، شيء

من الأذى. وفيه بيان علامة المسلم، الذي يُستدلُّ بها على إسلامه الصادق، وهي سلامة المسلمين، من شرِّ لسانه، وشرِّ يده، وسائر ضروب الأذى.

توضيح وبيان

هذا كالتأكيد للحديث السابق، أنَّ أفضل المسلمين عند الله، من تخلص الناس من أذاه وضرره، باللسان، أو باليد، وهو المسلم الصادق الذي جُمع بين أداء حقوق الله تعالى، وحقوق عباده، فليس الإسلام مجرد أداء شعائر الصلاة، والعبادة لله، وسائر أركان الإسلام، بل هو من سلّم المسلمون من شرِّ لسانه، وشرِّ يده، وخصّ اللسان بالذكر، لأنه المعبر عمّا في النفس، وكذلك الأمر بالنسبة إلى اليد، لأن أكثر الأفعال تكون باليد.

وجاء في بعض الروايات زيادة (والمؤمن من أمّته الناس على دمائهم وأموالهم).

ما يُستفاد من الحديث

الأول: في هذا الحديث من أنواع البديع، ما يسمى (بجناس الاشتقاق)، فقد اشتق من الإسلام لفظ المسلم، ومن الإيمان لفظ المؤمن، وهذا في علم البديع، له مكانة رفيعة يدركها أهل الأدب.

الثاني: وفيه بيان حقيقة معنى الإسلام والإيمان، وأنَّ أفضل المسلمين من أدّى حقوق الله، وحقوق عباده.

الثالث: وفيه التنبيه بالأدنى على الأعلى، فمن أحسن معاملته إخوانه، فالأولى به أن يُحسن معاملته مع ربه.

باب (إطعام الطعام وإفشاء السلام من الإسلام)

١٢ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتُقْرِئُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»).

[الحديث طرفاه في: ٢٨، ٦٢٣٦]

ومرادُ السائل بقوله (أيُّ الإسلام خيرٌ) أيُّ شُعبِ الإسلام أحبُّ عند الله وأفضلُ؟ فهو سؤالٌ عن أفضل الأعمال في الإسلام.

شرح الحديث

في هذا الحديث بيانُ فضائل خصال الإسلام، ومرادُ السائل أن يقول: أيُّ أعمال البرِّ والخير، أفضلُ عند الله تعالى، يا رسول الله؟ فأجابه ﷺ: (أن تُطعمَ الطعامَ، وتبدأَ السَّلامَ على من تعرفه ومن لا تعرفه).

لأن إفشاء السَّلام، شعارُ أهل الإسلام لقوله تعالى: ﴿فَلْيُؤْمَرُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ نَحْيَةَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١] أي ليسلم بعضكم على بعض.

فإن قيل: إنَّ السؤال كان متقارباً في اللفظ (أيُّ الإسلام أفضل)؟ و(أيُّ الإسلام خير)؟ وجاءت الإجابة مختلفة، فكيف صحَّ ذلك؟

فالجواب: أنه اختلف باختلاف حال السائلين، وبحسب الوقت والمصلحة.

ففي الأول: حذَّر ﷺ من إيذاء المؤمن، وممن يحتمل صدور الأذى منه، فقال ﷺ: «أفضلُ الإسلام من سلم المسلمون من لسانه ويده».

وفي الثاني: حثَّ على الإطعام، لحاجة المهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم لعونهم وإطعامهم، لِمَا كانوا عليه من الجُهد والحاجة، وكان هذا حين دخل المهاجرون المدينة المنورة.

كما رواه الترمذي من حديث عبد الله بن سلام، أنَّ أول كلام سمعه من رسول الله ﷺ أنه كان يقول: (أيُّها النَّاسُ: أطعموا الطعامَ، وأفشوا السَّلامَ، وصلُّوا الأرحامَ، وصلُّوا بالليل والنَّاسُ نيام، تدخلوا الجنةَ بسلام).

فالرسول ﷺ كالطبيب المداوي، يصف الدَّواءَ، بعد تشخيص الداء، على حسب الحاجة والضرورة.

تنبيه لطيف

قوله ﷺ: (على من عرفتَ ومن لم تعرف) مراده: أنَّ لا يَخُصَّ بالسَّلام، أحداً من العظماء والكبراء، بل سلِّم على جميع المسلمين، الأغنياء منهم والفقراء، من عرفت منهم، ومن لم تعرفه، تأليفاً لقلوب المؤمنين، ومراعاةً للأخوة الإيمانية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات].

ما يستفاد من الحديث

- ١ - فيه الحثُّ على إطعام الطعام، الذي هو أمانة الجود والكرم، وفيه نفع المحتاجين، وسدَّ الجوع الذي استعاذ منه النبي ﷺ.
- ٢ - وفيه إفشاء السلام، الذي يدلُّ على التواضع لإخوانه المؤمنين، وتأليف قلوبهم، واجتماع كلمتهم، وتعميم هذا السلام، قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيَمَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [النور: ٦١] وأنَّ السلام يعُمُّ من عرفناه، ومن لم نعرفه.
- ٣ - وفيه حبُّ الخير لجميع المسلمين، كما يحبُّ المؤمنُ الخيرَ لنفسه.

باب (من الإيمان أن يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)

- ١٣ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).

شرح الألفاظ

(لا يؤمن أحدكم) أي لا يكملُ إيمانُ الإنسان، حتى يحبَّ لأخيه المسلم ما يحبُّ لنفسه، من جميع وجوه الخير والإحسان، من النفع، ودفع الضرر. وجاء في رواية النسائي (حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه من الخير).

قال النووي: أصلُ المحبة: الميلُ إلى ما يوافق المُحِبَّ، ثم هذه المحبة قد تكون بما يستلذه بحواسه، كحسنِ الصورة، وبما يستلذه بعقله، كمحبة الفضل والجمال، وقد يكون بسبب الإحسان، ودفع المضار، والمراد أن يحصل لأخيه المؤمن، نظير ما يحصل له من الخير والنفع، وسرُّ المعايب، وأن يكون هذا الحبُّ من أجل الله، وفي الله، لا لكسب ومغنم دنيوي، لحديث (من أحبَّ لله، وأبغضَ لله - أي من أجل مرضاة الله - وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان).

وهذا الحديث والذي سبقه، ذكرهما البخاري في صحيحه، لبيان أن الإيمان ليس التصديق والاعتقاد بوجود الله ووحديته فقط، وإنما هو كما ذكره في مقدمة الباب (إقراراً باللسان، واعتقاداً بالجنان - أي بالقلب - وعمل بالأركان) وأنه يزيد وينقص، يزيد بالأعمال الصالحة، وينقص بالمعاصي والقبائح.

باب (حُبِّ الرسول ﷺ من الإيمان)

١٤ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ).
[انظر شرحه في الحديث الآتي رقم ١٥].

١٥ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

شرح الألفاظ

(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) قَسَمٌ مِنْ أَفْخَمِ أَنْوَاعِ الْقَسَمِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ تَأْكِيدُ الْكَلَامِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَّةِ الْأَمْرِ، فَالرَّسُولُ ﷺ يَحْلِفُ بِجَلَالِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ، عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَكُونُ صَادِقًا وَلَا كَامِلًا، إِلَّا إِذَا كَانَ حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ أَعْظَمَ مِنْ حُبِّ جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَزَادَ أَنَسٌ عَلَى رَوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَوْلَهُ: (وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) لِيَبَيِّنَ أَنَّ حُبَّهُ ﷺ مِنَ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ الْهَامَّةِ، وَحِينَ سَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا مِنْ نَفْسِي!! فَقَالَ لَهُ ﷺ: (لَا يَا عُمَرُ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ)، فَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ حَتَّى مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ لَهُ ﷺ: (الآنَ يَا عُمَرُ) أَيِ الْآنَ كَمَلْتُ دِينَكَ وَإِيمَانُكَ.

(أَحَبُّ إِلَيْهِ) الْمُرَادُ بِالْمَحَبَّةِ هُنَا: حُبُّ الْقَصْدِ وَالِاخْتِيَارِ، لَا حُبُّ الطَّنْعِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بِطَبْعِهِ يَحِبُّ كُلَّ مَا يَجْلِبُ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ، وَهَذَا شَيْءٌ زَائِدٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ

تَعَرَّضَتْ نَفْسُ الرَّسُولِ لشيءٍ مِنَ الْخَطَرِ، يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْدِمَ نَفْسَهُ فِدَاءً لَهُ ﷺ، وَلَوْ رَغِبَتْ نَفْسُهُ فِي شَيْءٍ، حَذَّرَ مِنْهُ الرَّسُولُ ﷺ، يَجِبُ أَنْ يَتْرَكَ الْأَمْرَ الْمَحْبُوبَ لِنَفْسِهِ، وَيَأْخُذَ بِمَا يَحِبُّهُ الرَّسُولُ وَهَكَذَا فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.

أقسامُ المحبة: ثُمَّ إِنَّ الْمَحَبَّةَ تَقْسَمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الأول: محبة عاطفية، كمحبة الرجل لولده، وزوجته، ومحبة لمن قدّم إليه شيئاً من الخير المعروف.

الثاني: ومحبة فطرية، كمحبة الطعام والشراب، وجميع المشتبهات، كما جاء في الحديث الشريف: (حُبُّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) قَالَ تَعَالَى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَنْصَبَةِ...﴾ [آل عمران: ١٤].

الثالث: ومحبة إجلال وتعظيم، كمحبة الله ورسوله، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقُوَّةٍ يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُونَهُ أَذِلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ...﴾ [المائدة: ٥٤].

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه جوازُ القَسَمِ، على الأمر الذي فيه مصلحة دينية، أو بلغ غاية الأهمية، كما في الحديث (والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ).

الثاني: وفيه تعظيمُ أمر الرسول ﷺ، وإجلاله، وطاعته في جميع ما جاء به، والافتداء به في سيرته وأحواله ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾ [آل عمران: ٣١].

الثالث: وفيه إثارةُ المصلحة الدينية، على المصالح الدنيوية، فحبُّ الرسول ﷺ فريضة دينية.

قال ابنُ حَجَرٍ: ومن علامة الحب المذكور، أن يتمنى المؤمن أن لو عاش زمنَ النبي ﷺ أن ينصره ويؤازره، ويدفع عنه كلَّ مكروه.

قال القاضي عياض: ومن محبته ﷺ نصرُ سنته، والذبُّ عن شريعته، وتمني حضور حياته، فيبذل ماله، ونفسه دونه ﷺ.

ومن مظاهر الحبِّ الصادق: ما قاله الصحابي الجليل (عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ) رضي الله عنه: (وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلُّ في عيني منه، وما كنتُ أطيقُ أن أملاً عيني منه، إجلالاً له ﷺ) رواه مسلم.

صِدْقُ وَفَاءٍ

في غزوة أحد حين أفرد رسول الله ﷺ وجاءت النبال نحوه، تترس حوله تسعة من الصحابة، كلهم يقدم روحه فداء لرسول الله ﷺ، وكان (أبو طلحة) يقول للرسول ﷺ: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا ترفع رأسك، لا يصيبك سهم من سهام القوم، نخري دون نحرِكَ). وكانت السهام تنزل على ظهر (أبي طلحة) وهو محوَّط به كالترس، يحمي الرسول ﷺ بنفسه، وقد قُتل منهم سبعة في تلك المعركة، الواحدُ تلو الآخر، وكلهم كان دزعا يقيه من النبال، رضوان الله عليهم جميعاً.

هذه هي المحبة الصادقة التي لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، فقد استشهدوا جميعاً فداء لرسول الله ﷺ.

بَابُ (حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ)

١٦ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ).

[الحديث أطرافه في: ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١]

شرح الألفاظ

(ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ) أي ثلاث خصال حميدة، وثلاث صفات جليلة، من كانت فيه، فقد تحقَّق فيه الإيمان، ووجد حلاوته في قلبه.

(وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ) معنى حلاوة الإيمان: لذته، والشعورُ بعظيم نعمة الإيمان في قلبه، وهو استلذاذه بالطاعة، وتحمل المشقة في رضى الله عز وجل، فالإيمان له حلاوة في القلب، كحلاوة الطعام اللذيذ، بعد شدة الجوع والعطش.

(أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا) أي يكون حُبُّ اللَّهِ ورسوله، أعظمَ عنده من كل شيءٍ في الدنيا، من المال، والولد، والزوجة، والمتاع، وغير ذلك من نعيم الدنيا.

(لَا يُجِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ) أي لا يحبُّ الرجلَ لمصلحة ولا لمنفعة، وإنما من أجل الله، وطلباً لرضوانه، فتكون محبته خالصةً لوجه الله تعالى.

(أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ) أي يكره العودة إلى الكفر، فيصبح كافراً، بعد أن نجَّاه الله منه بالإسلام، كما يخاف أن يُقذف في النار، المستعرة اللّاهبة.

قال النووي: هذا حديثٌ عظيم، وأصلٌ من أصول الإسلام. كيف لا، وفيه محبة الله ورسوله، التي هي أصل الإيمان، بل هي عينه، ولا تصحُّ محبة الله ورسوله، ولا كراهة الرجوع إلى الكفر، إلّا لمن قوِيَ الإيمان في نفسه، وانشرح له صدره، وخالط هذا الإيمان دمه ولحمه، فهذا الذي يجد حلاوة الإيمان.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه أنَّ حَبَّ اللَّهِ ورسوله، ينبغي أن يكون أعلى من كل شيء في هذه الدنيا ومن جميع مُتَعِ الحياة.

الثاني: وفيه أن تكون المحبة بين الرجل وصاحبه، خالصةً لوجه الله تعالى، لا لمنافع دنيوية.

الثالث: وفيه الثُّقَرَةُ عن الكفر والهَرَبُ منه، كما يهرب الإنسان من نار الجحيم، وكما يهرب من الوحش المفترس.

الرابع: وفيه أنَّ محبَّةَ اللَّهِ وحده لا تكفي، حتى يقرنَ بها الشخص محبَّةَ رسوله عليه الصلاة والسلام.

الخامس: وفيه أنَّ الإيمان في القلب، له حلاوة، أعظمُ من حلاوة الطعام والشراب، على الجوع والعطش.

السادس: وفيه أنَّ الأمور الثلاثة، التي ورد بها الحديث، هي عنوان كمال الإيمان، الموصول إلى تلك اللذة، وهي برهانُ رسوخ الإيمان في قلب المسلم.



بَابُ (علامة الإيمان حُبُّ الأنصار)

١٧ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ).
[الحديث طرفه في ٣٧٨٤]

شرح الألفاظ

(آيَةُ الْإِيمَانِ) أي علامة الإيمان، والآية في اللغة معناها: العلامة، قال تعالى: ﴿وَأَيُّةٌ لَهُمُ الْآيَةُ﴾ [يس: ٣٧] أي علامة لهم على قدرة الله الليل والنهار، يتعاقبان بنظام دقيق، وقال الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاجِدٌ

(حُبُّ الْأَنْصَارِ) الأنصار: جمع ناصر، كالأصحاب جمع صاحب، سُمُوا أنصاراً، لنصرتهم للنبي ﷺ، وهم قبيلتان كانتا قبل إسلامهما تُعرفان بـ(الأوس) و(الخزرج) وكانت بينهما حروب طاحنة مدمرة، دامت عشرات السنين، حتى كاد بعضهم يُفْنِي بعضاً، فلما أسلموا سُمُوا (أنصاراً) قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْآخِرُونَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].
وصار حبُّهم من الإيمان، لأنهم آووا النبي وأصحابه المهاجرين، فصار حبُّهم ديناً، وبغضهم نفاقاً.

(بُغْضُ الْأَنْصَارِ) البغض: ضدُّ الحبِّ، وهو كراهية أحدٍ من هؤلاء الصحابة، والنفاق: إظهارُ الإيمان وإبطانُ الكفر، وهذا النوع أخبث من الكفر الظاهر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صٰبِرِينَ﴾ [النساء: ١٤٥].

تنبيه لطيف هام

إنما كان حُبُّ الأنصار من الإيمان، وبغضهم من النفاق، لأنَّ الله تعالى أعزَّ بهم الإسلام، وهم الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم لنصرة هذا الدين، ثم هم الذين

أَكْرَمُوا الْمُهَاجِرِينَ، وَآثَرُوهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَلِهَذَا أَثْنَى تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] خَصَاصَةٌ أَي حَاجَةٌ إِلَى الْمَالِ وَفَاقَةٌ شَدِيدَةٌ. وَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا التَّكْرِيمَ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ، وَقَدْ قَالَ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ: (اللَّهُ اللَّهُ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ هَدَفًا مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحَبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِغْضِي أَبْغَضَهُمْ...) الْحَدِيثُ، أَي لَا يَحِبُّهُمْ إِلَّا مَنْ أَحَبَّنِي، وَلَا يَبْغِضُهُمْ إِلَّا مَنْ أَبْغِضَنِي.

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث الحثُّ على حُبِّ الأنصار، لأنهم ركنُ الإسلام وحماته.
الثاني: وفيه أنَّ حُبَّ الأنصار، نابعٌ من قُوَّةِ إيمان المسلم، لذلك كان من الدين.

الثالث: وفيه التنويهُ بعظيم فضلهم، والتحذيرُ الشديد من بغضهم.
الرابع: وفيه أنَّ حُبَّ المؤمن للصالحين، واجبٌ ديني، فكيف بأصحاب الرسول رضوان الله عليهم، الذين بذلوا أموالهم وأرواحهم، لنصرة دين الله!؟

باب (بيعة الصحابة الرسول ﷺ)

١٨ - عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ، - وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ - (بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تُسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ، تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَغْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ) قَالَ: عُبَادَةُ فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ.

[الحديث أطرافه في: ٣٨٩٢، ٣٨٩٣، ٣٩٩٩، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٦٨٧٣،

٧٠٥٥، ٧١٩٩، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]

شرح الألفاظ

(وحوله عصابة) أي حوله مجموعة من أصحابه الكرام يحيطون به، والعصابة: من العشرة إلى الأربعين، وما زاد لا يسمى عصابة.

(بايعوني) البيعة: عبارة عن المعاقدة والمعاهدة، على النصرة والجهاد، وغير ذلك، وقد كانت البيعة واجبة في بدء الإسلام، وكانت بيعة على الموت في سبيل الله تعالى، وعلى عدم الفرار من المعركة، كما حدث في «صلح الحديبية»، حيث بايع الصحابة رسول الله ﷺ على الموت والشهادة، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ...﴾ [الفتح: ١٠] وهنا كانت البيعة على الطاعة، وعدم الشرك بالله، وترك الفواحش الكبيرة.

(ولا تقتلوا أولادكم) المراد بقتل الأولاد هنا «وأذ البنات» حيث كان ذلك شائعاً عندهم في الجاهلية ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] فقد كانوا يدفنون البنات، وهن على قيد الحياة، خشية العار، أو خوفاً من الفقر ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا تَكُونُوا﴾ [الإسراء: ٣١].

(ولا تأتوا ببهتان) البهتان: الكذب والافتراء الذي يبهت سامعه أي يذهشه لفظاعته، يقال: بهته بهتاناً، إذا كذب عليه، وهو منه بريء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَرَوِيهِهٖ بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢].

(ولا تعصوا في معروف) أي لا تعصوا أمري فيما أمركم به، من طاعة الله عز وجل، والمعروف: هو اسم جامع لكل خير، ولكل أمر حسن، ممّا استحسنته الشرع وأمر به.

(فمن وفى منكم) أي ثبت على العهد والبيعة، يقال: وفى بالعهد، وأوفى به، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْكُمْ اللَّهُ؟﴾ [التوبة: ١١١] أي لا أحد أوفى بوعده من الله جلّ وعلا.

(ومن أصاب من ذلك شيئاً) أي فعل ما يخالف البيعة، من المعاصي والآثام، وارتكاب أنواع المنكرات.

(فهو كفارة له) أي إذا عوقب بإقامة الحد عليه، فيكون ذلك كفارة لذنبه.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه أن إقامة الحدود، على أهل الكبائر والمعاصي، كفارة للذنوب، كما

قال علي رضي الله عنه: (من عُوقِبَ في الدنيا، فالله أكرم من أن يُثَنِّي بالعتوبة عليه في الآخرة) رواه الترمذي.

الثاني: وفيه أن من مات من أهل الكبائر قبل التوبة، فأمره إلى الله تعالى، إن شاء عذبه ثم أدخله الجنة، وإن شاء غفر الله، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للمعتزلة، القائلين بأنه يُخلد في النار، إذا لم يتب.

الثالث: وفي الحديث ردٌّ على الخوارج، الذين يكثرُون المؤمنين بالذنوب والكبائر، ويقولون: إذا لم يتب من الذنوب، فلا بدَّ أن يُعَذَّبَ بالنار.

الرابع: وفيه عدمُ الحكم بالنار، على أحد من المسلمين، مهما كثرَ ظلمه، وفُجُورُه.

الخامس: وفيه أن الأمور التي تتعلق بالجهاد، ينبغي فيها أخذُ البيعة من المسلمين، كما فعل ﷺ.

السادس: وفيه بيانُ فضل من حَضَرَ (غزوة بدر)، من الصحابة رضوانُ الله عليهم، لقوله - وكان شهد بديراً - لأنها أولُ الغزوات الإسلامية، وفيها كان النصر المبين للمسلمين، حتى سمّاها القرآن يوم الفرقان: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَى الْأَجْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٤١].

السابع: وفيه أن الحدودَ يقيمها الحاكم، ولا تُترك للناس، لئلا تحصل الفوضى، ويضطرب الأمن.

تنبيه وتوجيه

بيعة الرسول ﷺ للصحابة، حدثت ثلاث مرات، وهي كالآتي:

الأول: (بيعة العقبة) بِمَنَى للأنصار، وفيها قوله ﷺ: (أبايعكم على أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم).

الثاني: (بيعة الحُدَيْبية) حين منعه المشركون من دخول مكة، وكانت على الموت في سبيل الله.

الثالث: بيعة النساء حين نزلت آية الممتحنة: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفْنَ وَلَا يَزْنِينَ . . . فَبَايَعَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢].

باب (الفرار من الفتن)

١٩ - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ، يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ).
[الحديث أطرافه في: ٢٣٠٠، ٣٦٠٠، ٦٤٩٥، ٧٠٨٨].

شرح الألفاظ

(يُوشِكُ): أي يَقْرُبُ، ماضيه «أوشك»، ومن أنكر استعماله ماضياً، فقد أخطأ، قال جرير:

إذا جهل اللئيم ولم يُقدَّرْ لبعض الأمرِ أوشك أن يُصَابَا
(شَعَفَ الْجِبَالِ) أي رؤوس الجبال، يُجمع على شِعَافٍ، وشُعُوفٍ، وهو الأعالي من كل شيء. !
(وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ) أي مواضع نزول المطر، لوجود العُشب فيها، حيث يكثر الخير والزرع.

(يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ) أي هرباً من الفتن، وحفاظاً على دينه في آخر الزمان.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه بيان فضل العزلة عن الناس، في أيام الفتن والمِحَن، وكثرة المصائب والبَلَايا.

الثاني: وفيه الاحتراز عن الفتن في آخر الزمان، حيث تكثر المنكرات والمعاصي.

الثالث: وفيه الإخبار بأنه يكون في آخر الزمان، فتنٌ عظيمة، وفساد بين الناس، وهذا من معجزاته ﷺ، حيث أخبر عن بعض الأمور الغيبية، وحدثت كما أخبر ﷺ.

تنبيهٌ لطيفٌ هام

العزلة في أيام الفتنة مطلوبة، إلا إذا كان الشخص له عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ على السعي في إزالتها، وقد ذهب الجمهور إلى تفضيل الخلطة، لِمَا فيها من اكتساب الفوائد، وشهود شعائر الإسلام، وإيصال الخير إليهم، بتعليمهم وتحذيرهم من الفواحش والمنكرات، وإن لم يكن له قدرة على ذلك، وخشي على نفسه من الوقوع في المهالك، فالعزلة له أفضل، لسلامة دينه، والله أعلم.

بابُ (أمرِ الرسول ﷺ للناس بما يُطيقون)

٢٠ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ، قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ أَنْتَ أَكْثَرُكُمْ وَأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ أَنَا).

شرح الألفاظ

(بما يطيقون) أي أمرهم بما يستطيعون فعله، من الأعمال الصالحة، يقال: أطاق يطيقُ إطاقَةً، إذا كُفِّ بشيء يستطيعه، ويقدرُ على فعله.

(لسنا كهيتتك) أي ليس حالنا كحالكَ، فأنت قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، ونحن لسنا كذلك، وأرادوا بهذا الكلام، أن يأذن لهم في الزيادة من العبادة والخير.

(أنا أنفأكم وأعلمكم بالله) أي أنا أخوفكم من الله، وأشدكم خشيةً له، أشار ﷺ إلى كماله في (القوة العملية) أي القدرة على الكثرة من العبادة، و(العلمية) أي المعرفة بالله عزَّ وجل، والكمالُ منحصرٌ فيهما: العلم، والعمل.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه أنَّ الأعمال الصالحة ترتقي بصاحبها، إلى المراتب الرفيعة، من رفع الدرجات، ومحو السيئات.

الثاني: وفيه أنَّ الأولى في العبادة: التوسُّط، وعدم إرهاق النفس، ليستمرَّ عليها، ولا ينقطع عن العبادة.

الثالث: وفيه الوقوف على ما جاء به الشارع، من عزيمة أو رخصة، والأخذ بالأرفق من الأحكام، لحديث (إِنَّ الْمُنْبِتَّ، لَا أَرْضاً قَطَعَ، وَلَا ظَهراً أَبْقَى) ومعناه: أنَّ الذي يُلزم الدابة على الإسراع يهلكها، ولا يصلُ إلى بلده.

الرابع: وفيه الإشارة إلى شدة رغبة الصحابة في العبادة، وطلبهم الزيادة من الخير.

الخامس: وفيه مشروعية الغضب لله، عند مخالفة الأمر الشرعي، والإنكار على من خالفه.

السادس: وفيه الدلالة على رفق النبي ﷺ بأمته، وبيان أنَّ الدين يسر، ليس فيه عسر.

السابع: وفيه جواز أن يخبر الإنسان بفضيلته، إذا دعت إلى ذلك الحاجة، كقول النبي ﷺ: (أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ) وقول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥].

٢١ - [الحديث - ٢١ طرفه في: ١٦] وانظر شرحه في الحديث رقم (١٦) المتقدم ذكره.

باب (خروج من كان في قلبه ذرة من إيمان من النار)

٢٢ - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ. فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا قِدَ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرٍ

الْحَيَا، أَوْ الْحَيَاة - شَكَّ مَالِكٌ - فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً).

[الحديث أطرافه في: ٤٥٨١، ٤٩١٩، ٦٥٦٠، ٦٥٧٤، ٧٤٣٨، ٧٤٣٩]

شرح الألفاظ

(**مَثْقَالُ حَبَةٍ**) أي وزن حبة، والمثقال كالمقدار، وزناً ومعنى، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] أي يعمل من الخير وزن ذرة يجد ثوابه.

(**خَرْدَل**) الخردل: نبات معروف يؤكل، بذوره أصغرُ البذور، يُضرب به المثل.

(**قَدْ اسْوَدُّوا**) أي صاروا سوداً كالفتحم، من تأثير النار عليهم، واحترقهم بها.

(**كَمَا تَنْبَتُ الْحَبَّةُ**) (الحبة) بكسر الحاء: بذور الصحراء مما ليس بقوت، وأما (الحبة) بفتح الحاء فهي حبة الحنطة، والشعير، قال تعالى: ﴿كَمْثَلِ حَبَّةٍ أَثْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ [البقرة: ٢٦١].

(**فِي جَانِبِ السَّيْلِ**) يراد به مسيل ماء السيل، حيث تنبت على أطرافه النباتات والأزهار البهيجة.

(**صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً**) أي صفراء متمائلة من الحسن والنضارة.

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث دليل على أنه لا يُخلد في النار، من كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا...﴾ [النساء: ٤٠].

الثاني: وفيه بيان تفاضل أهل الإيمان بالأعمال، فمنهم من يكون إيمانه راسخاً، قوياً كالجبال، ومنهم من يكون إيمانه ضعيفاً، ليس فيه إلا مثل الذرة من الإيمان.

الثالث: وفيه أن أهل المعاصي والذنوب، يُعذبون في النار، حتى يصبحوا سوداً كالفتحم، ثم يخرجون منها بشفاعة سيد المرسلين ﷺ، ولو كان إيمانهم ضعيفاً بوزن الذرة.

تنبيه لطيف

التشبيه في الحديث، صورةٌ منتزعة من متعدّد، وهو ما يسمى (بالتشبيه التمثيلي) من حيثُ ضعفُ النبات، ومن حيثُ الحسنُ والنضارة. والمعنى: أن من كان في قلبه وزن حبة من إيمان، يخرج من ذلك الماء نصيراً حسناً، في غاية الحسن، كخروج الريحان الذي ينبت على جانب السيل أصفر زاهياً. وفي هذا الحديث: دليل ساطع على خروج العصاة من المؤمنين من النار، مهما كان إيمانهم ضعيفاً، ولا يُخلد في النار إلا الكفارُ الفجار.

باب (فضل عمر رضي الله عنه وقوة دينه)

٢٣ - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَغُرَضَ عَلَيَّ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ، قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الدِّينُ).

[الحديث أطرافه فيه: ٣٦٩١، ٧٠٠٨، ٧٠٠٩]

شرح الألفاظ

(يُعْرَضُونَ عَلَيَّ) أي يمرّون أمامي ويظهرون عليّ وأنا أبصرهم.
(وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ) أي ثياب يلبسونها، جمع قميص وهو الثوب، منها الطويل، ومنها القصير، الذي يبلغ ثدي الرجل، لشدة قصره، والثدي يُذَكَّرُ ويؤنَّثُ.
(وَعُرِضَ عَلَيَّ عَمْرٌ) أي ظهر لي عمر، وهو يلبس ثوباً طويلاً فضفاضاً.
(قَالُوا فَمَا أَوْلَتْ ذَلِكَ؟) أي بماذا عبّرت هذه الرؤيا المنامية يا رسول الله؟
(قَالَ: الدِّينُ) أي قوة دين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ما يستفاد من الحديث

- الأول:** في الحديث دلالة على تفاضل أهل الإيمان يوم القيامة.
- الثاني:** وفيه دلالة على فضيلة عمر رضي الله عنه، فقد شهد له الرسول ﷺ بصلافة الإيمان.
- الثالث:** وفيه جوازُ تعبير الرؤيا المنامية، وسؤالُ أهل الفضل والصلاح عن تعبيرها.
- الرابع:** وفيه الثناء العاطر، على أهل الفضل والصلاح، إذا لم يشعر الممدوحُ بالعجب، ولم يدخل إلى نفسه شيء منه.
- الخامس:** وفيه التخلُّق بأصحاب رسول الله رضوانُ الله عليهم، والافتداء بسيرتهم العطرة، لاسيَّما الشيخان (أبا بكر، وعمر).

تنبيهٌ لطيفٌ

هذه رؤيا منامية، رآها رسول الله ﷺ في نومه، وفسَّر هذه الرؤيا بصلافة الدين، والتعبيرُ من الرسول حقٌّ، فقد كان عمرُ رضي الله عنه من أشدَّ الصحابة تمسكاً بالدين، ولذلك رآه الرسول يجزُّ ثوبه، ورؤيا الأنبياء حقٌّ، بل هي قِسْمٌ من أقسام الوحي، فقد رأى الرسول ﷺ أنه دخل مكة، وطاف بالبيت الحرام، هو وأصحابه الكرام، وبشَّروهم بهذه الرؤيا، ونزل القرآن يخبر بتحقيق الرؤيا ﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ [الفتح: ٢٧] وحقق الله لرسوله هذه الرؤيا المنامية، وهذه كرامة عظيمة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بابُ (الحياء من الإيمان)

- ٢٤- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ -، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ).
- [الحديث طرفه في: ٦١١٨]

شرح الألفاظ

(يَعِظُ أَخَاهُ) أي ينصح ويعاتب أخاه في شأن الحياء، وكان الرجل كثير الحياء، فكان يلوم صاحبه على حيائه.

(فَقَالَ الرَّسُولُ دَعُهُ) أي اتركه على هذه الخصلة الحميدة، والخلق الحسن.

(فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ) أي فإنَّ الحياء - أي الاستحياء - فرع من فروع الإيمان، والمراد بالحياء (الحياء الشرعي) الذي يمنع عن مقارفة الفواحش والردائل، لا الحياء الذي يضيع فيه حق الإنسان، ويستحي أن يطلبه.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه التنويه بفضيلة الحياء، وكونه من مستلزمات الإيمان.

الثاني: وفيه أنَّ الحياء خلق المؤمن، وهو علامة على قوة إيمانه.

الثالث: وفيه أنَّ الحياء كله خير، ولا يأتي إلا بالخير، ولهذا مدح به النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّفْسَ فَسَتَحِيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِي مِنْ الْحَقِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٣].

شرح الحديث

حُتِّنا الدين الإسلامي الحنيف، على التمسك بخلق الحياء، لأنه يعصم الإنسان، عن فعل القبائح والمنكرات، وإذا فقد الحياء من شخص، ارتكب كل فاحشة، وفعل كل قبيح، ولهذا قال النبي ﷺ: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ - أي مواعظ الأنبياء الكرام - إذا لم تستح فاصنع ما شئت) رواه البخاري.

قال الشاعر:

فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللَّحَاءُ



باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة)

٢٥ - عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ).

شرح الألفاظ

(أُمِرْتُ) أي أمرني الله عز وجل، إذ لا أمر للرسول ﷺ إلا الله رب العزة والجلال.

(أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ) المراد بالناس جميع الكفار، فيدخل فيهم المشركون عبدة الأوثان، وأهل الكتاب عبدة الصُّلْبَانِ، وقيل: المراد بالناس عبدة الأوثان، دون أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لأن قتالهم يسقط بقبولهم الجزية، لقوله سبحانه: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

(يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أي يشهدوا لله عز وجل بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة.

(عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ) أي حفظوا وصانوا من القتل دماءهم وأموالهم، لأنهم صاروا مسلمين.

(إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ) أي إلا إذا فعلوا فعلاً يستحقون عليه إقامة الحد، كالقتل العمد، والزنى للمُخَصَّن، والرَّذَّة عن الإسلام، فيقتلون حدًا.

(وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) أي نحن واجِبْنَا أَنْ نَحْكُمَ عَلَى الظَّاهِرِ، وَحِسَابُ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ عَلَى اللَّهِ عز وجل.

ما يستفاد من الحديث

الأول: يؤخذ من الحديث: أن تارك الصلاة عمداً يُستتاب، ثم يُقتل حدًا إن لم يصل.

الثاني: وفي الحديث دليل على قبول الأعمال الظاهرة، وتترك السرائر إلى عالم الغيوب.

الثالث: وفيه عدم تكفير أهل البدع، المقرين بالتوحيد، الملتزمين للشرائع.

الرابع: وفيه أنه لا بدّ للدخول في الإسلام من النطق بالشهادة، لقوله: (حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله).

الخامس: وفيه وجوب قتال المشركين حتى يُسلموا، وقتال أهل الكتاب حتى يدفعوا الجزية.

السادس: وفيه أن من أنكر شيئاً من فرائض الإسلام وجحد فرضيته، يقتل حداً، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

تنبيه هام

إنما أمر الرسول ﷺ بقتال المشركين، لأنهم خطرٌ على البشرية جمعاء، لأنهم بكفرهم بالله، يفسدون في الأرض، فيمنعون أهل الإيمان من إقامة شعائر دينهم، ويُقدمون على سفك دمائهم، ويهدمون بيوت الله، كما فعل الملاحدة الشيوعيون بالمسلمين، حينما استولوا على ديارهم، فأزهقوا الأرواح، ونهبوا الأموال، ودمروا بيوت العبادة، فأمر المسلمون بقتالهم، لكف شرهم، وتطهير الأرض من رجسهم.

باب (من قال: إن الإيمان هو العمل)

٢٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: سُبُلُ أَيِّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجُّ مَبْرُورٍ).

[الحديث طرفه في: ١٥١٩]

شرح الألفاظ

(سُئِلَ ﷺ) السائل هو: (أبو ذر الغفاري) وحديثه مروي في العِتَقِ .
 (أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟) أي أكثر ثواباً عند الله تعالى؟ والفضل والفضيلة ضدّ النقص والنقيصة، والصيغة هنا «صيغة تفضيل» كقولنا: فلانٌ أكرمُ، وأعلم، وأطهر .
 (الجهادُ في سبيلِ الله) أصلُ الجهاد: بذلُ الجُهدِ لنصرة دين الله، والمراد به قتالُ الكفار، لإعلاء كلمة الله، والسبيلُ: الطريقُ، وقُرِنَ (في سبيلِ الله) أي لإعزاز الدين، لا لشهرة، أو كسبِ دنيوي .
 (حجٌّ مبرور) أي حجٌّ مقبول، لا رياء فيه ولا سُمعة، وهو الذي لا يخالطه إثم، وعلامةُ الحجِّ المبرور: أن يرجع الإنسانُ خيراً ممّا كان .
 قال البَذْرُ العينيُّ: من علامات القبول: أنه إذا رجع، كان حاله خيراً ممّا كان عليه من قبل .

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه الدلالة على نيل الدرجات العالية، والمراتب الرفيعة، بالأعمال الصالحة .
الثاني: وفيه تقديمُ الإيمان بالله ورسوله، على جميع الفرائض، لأنه الأصل لقبول الأعمال .
الثالث: وفيه بيانُ أنَّ الأفضل بعد الإيمان، الجهادُ في سبيلِ الله، وبعده الحجُّ المبرور .
الرابع: وفيه التنبيهُ على التفاضل بين الفرائض والواجبات، فالإيمان أفضلُ الأعمال، ثم الجهادُ، ثم الحجُّ لمن استطاع إليه سبيلاً .

تنبيهٌ لطيفٌ هام

لا تَعَارِضَ بين الأحاديث الشريفة، فقد كان ﷺ يُسأل عن أفضل الأعمال؟ فيجيب «الصلاة على وقتها» لمن يعلم من حاله أنه يؤخّر الصلاة، ويُسأل عن أفضل الأعمال؟ فيقول: «برُّ الوالدين» لمن يظهر له من حاله أنه يَعِقُ والديه، ويسأله الشابُّ القويُّ، ذو العضلات الفتية؟ فيقول له: «الجهادُ في سبيلِ الله» فالأفضليَّةُ تختلف

باختلاف الأحوال، والأشخاص، وهذه من (الحكمة النبوية) التي تتناسب مع أحوال الناس، مثل الطبيب الذي يصف لكل مريض ما يناسبه من الدواء، فصلوات ربي وسلامه على من أعطي الحكمة، وفصل الخطاب.

باب (متى يكون الإسلام على الحقيقة)؟

٢٧ - عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَعْطَى رَهْطًا وَسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟! فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا». فَسَكَتُ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا» ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةً أَنْ يَكْبَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ».

[الحديث طرفه في: ١٤٧٨]

شرح الألفاظ

(أَعْطَى رَهْطًا) الرَّهْطُ: الجماعة، ما كان دون العشرة من الرجال، وهو ما بين الثلاثة إلى العشرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتُكَ﴾ [هود: ٩١] وقد يُطلق على الشخص الواحد، كما في الحديث: «جاء ثلاثة رهط إلى رسول الله ﷺ أي ثلاثة رجال.

(وسعد جالس) يريد نفسه (سعد بن أبي وقاص) راوي الحديث، ويسمى هذا بالتجريد، وهو أن ينتزع، المتكلم شخصاً آخر من نفسه، ويتحدث عنه، والأصل أن يقول: وأنا جالس.

(رجلاً أعجبهم إلي) أي لم يعط الرسول رجلاً، هو في نظري أحقهم بالثناء لفضله.

قال ابن حجر: واسم هذا الرجل (جُعيل الضُمري).

(مَا لَكَ عَنْ فَلَان؟) أي لماذا رغبت عن عطائه، وعدلت عنه فلم تعطه؟

(إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا) أي أظنُّ بل أعتقد أنه مؤمنٌ صادقُ الإيمان.

(فَقَالَ: بَلْ مُسْلِمًا) أي فقال النبي ﷺ: لا تقل مؤمنًا، لأن الإيمان خفيٌّ في القلب، لا يعلم حقيقة أمره إلا الله، بل قل: «مسلمًا» لأن أمره ظاهر، يريد ﷺ أن لفظة الإسلام، أولى بأن تقولها في هذا الموطن.

قال النووي: ليس فيه إنكار كونه مؤمنًا، بل معناه التَّهَيُّ عن القطع بالإيمان لأنه خفيٌّ.

(ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ) أي غلبني عن السكوت ما أعلم من فضل (جُعِيل) وحاجته إلى العطاء، لكونه من المهاجرين الفقراء، وهو أحقُّ بالعطاء.

(فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي) أي كررتُ مقالتي، وكرّر الرسول جوابه لي، ثم قال لي منبهاً إلى الحكمة من إعطاء الآخرين، وترك إعطائه: (إِنِّي لَأَعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ..). الحديث.

(يَكْبَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ) أي إني لأعطي إنساناً وغيره أحبُّ إليَّ منه، خشية أن يطرحه الله في النار على وجهه، لضعف إيمانه.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه بيان التفرقة بين (الإيمان) و(الإسلام) فأمرُ الإيمان خفيٌّ، والإسلام أمره ظاهر.

الثاني: وفيه جوازُ تصرفِ الإمام في بيت مال المسلمين، حسب المصالح، وتقديم الأهم فالأهم.

الثالث: وفيه جوازُ الشفاعة عند الإمام، لمن يُعتقد فيه الخير والصلاح.

الرابع: وفيه الأمرُ بالتثبت، وترك القطع لأحدٍ بالإيمان، أو بالجنة، فيما لم يثبت فيه نصٌّ شرعي، كالعشرة المبشرين بالجنة، وكقوله ﷺ عن (عبد الله بن سلام) إنه من أهل الجنة.

الخامس: وفيه استحبابُ ترك الإلحاح في السؤال، لأنَّ سعداً كرّر السؤال حتى يئنَّ له الرسول ﷺ الحكمة من ترك عطائه.

السادس: وفيه أنه ينبغي أن يُعتذر للشافع، إذا لم يؤخذ بطلبه، ويبيِّن له عُذْرَه في ردّها، كما وضّحه ﷺ لسعيد رضي الله عنه.

تذكير وتبصير

قال ابن حَجَرٍ في فتح الباري: وَمُحَصَّلُ القِصَّةِ أَنَّ النَبِيَّ ﷺ كَانَ يُوَسِّعُ العِطَاءَ، لِمَنْ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ، تَأَلَّفًا لِقَلْبِهِ، فَلَمَّا أُعْطِيَ الرَّهْطُ - وَهُمْ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ - وَتَرَكَ (جُعِيلًا) وَهُوَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، خَاطَبَهُ سَعْدٌ فِي أَمْرِهِ، لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهُ أَحَقُّ مِنْهُمْ، فَأَرْشَدَهُ النَبِيُّ ﷺ إِلَى أَمْرَيْنِ:

أحدهما: إعلامه بالحكمة في إعطاء أولئك، وحرمان (جُعِيل) مع أنه كان عند رسول الله ﷺ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّنْ أَعْطَاهُمْ.

والثاني: إرشاده إلى التوقف عن الثناء بالأمر الخفي، دون الثناء بالأمر الظاهر، فَإِنَّ أَمْرَ الإِيمَانِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَمْرُ الإِسْلَامِ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ، فَظَهَرَ بِهَذَا فَائِدَةُ رَدِّ الرِّسُولِ ﷺ عَلَى سَعْدٍ. اهـ. فتح الباري.

٢٨ - [الحديث - ٢٨ - طرفه في: ١٢]

قد تقدّم شرحه في حديث رقم ١٢ فارجع إليه هناك.

باب (كُفْرَانِ الْعَشِيرِ)

٢٩ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ! قِيلَ: أَيْكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ).

[الحديث أطرافه في: ٤٣١، ٧٤٨، ١٠٥٢، ٣٢٠٢، ٥١٩٧]

شرح الألفاظ

(أُرِيتُ النَّارَ) هذه من الرؤية البصريّة، وذلك حين عُرج به ﷺ إلى السموات العلّاء.

(يكفرون) لا يُراد به الكفرُ المخرجُ عن الدين، ولكن كُفْرُ النعمة، وجَحْدُ الإحسان، كما قال سبحانه: ﴿أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

(العشير) أي الزوجُ المعاشِرُ، من العِشْرة، بمعنى المصاحبة، والمصادقة.

(الدهر) يراذُ به طيلةُ الزمانِ، من بداية الحياة الدنيا إلى نهاية الحياة.

(رأت منك شيئاً) التنكير في (شيئاً) للتقليل، أي شيئاً قليلاً لا يوافق مزاجها، أو شيئاً حقيراً لا يعجبها.

(ما رأيتُ منك خيراً قطُّ) أي أنكرتُ كلَّ إحسان وجميل، لتغلبُ العاطفة في المرأة على عقلها، لذلك تُسرِع في الإنكار، ثم تندم على صَنِيعها، بخلاف الرجل فإنَّ عقله يغلب على عاطفته.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه تحريمُ جحودِ نعمةِ الزوج، وكفرانِ الحقوق والنعم، وأنها من المعاصي والذنوب.

الثاني: وفيه التنبيهُ على أنَّ المعاصي تُنقص الإيمانَ، ولكنها لا توصل إلى الكفر، المخلد في النار.

الثالث: وفيه الدلالةُ على جواز إطلاق الكفر على (كفر النعمة) ولهذا قال ﷺ لمن سألَه أيكفرون بالله؟ قال: (يكفرون العشيرَ، ويكفرون الإحسانَ).

الرابع: وفيه التوعُّدُ بالنار، على كُفْرانِ العشير والإحسان، ويدلُّ على أنهما من الكبائر.

الخامس: وفيه التفريقُ بين كُفْرٍ، وكُفْرٍ، واختلافُ حكمهما، فالكفر بالله يخلد صاحبه في النار، بخلاف كفر الإحسان، فإنه يوجب العقاب.

أقول: إذا كان جحودُ «نعمَةِ الزوج» وإحسانِهِ، يوجب تعريض النفس للعذاب، فكيف بمن يجحد نعمةَ الخالق جلَّ وعلا، ولا يقرُّ بالفضل لمن أسدى إليه أنواع النعم؟ وصدق الله العظيم ﴿وَإِنْ نَعُدُوا نَعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

تذكير وتبصير

عجيبُ أمرِ النساء، يبذل الرجلُ كلَّ ما في وسعه، لتهيئة أسباب الراحة والهناء

لزوجته، فيشقى ويتعب للإنفاق عليها، وتأمين حاجاتها لیسعدها، فإذا ما غضبت يوماً من الأيام، أنكرت كل جميل وإحسان، وقالت: ما رأيتُ منك خيراً قط!!

كيف تنكر الزوجةً جميله وإحسانه، لأبسط الأمور والأشياء؟ إنها غريزة العاطفة التي تغلب على المرأة، وقد حباها الله بهذه العاطفة، لترعى بها الأولاد، وتحنو عليهم، فالرجل فيه (عقل وعاطفة)، لكن العقل يغلب فيه على العاطفة، والمرأة كذلك فيها (عاطفة وعقل) ولكن العاطفة تغلب على العقل، فهي في حالة الغضب لا تفكر بعقلها، ولذلك تنكر جميل زوجها، وتقول: ما رأيتُ منك خيراً أبداً!! ثم إذا هدأت نفسها أدركت خطأها، فندمت واعتذرت، لذلك ينبغي على الرجل أن لا يستغرب هذا الخلق منها، وألا يستفزها حتى لا يسمع منها ما يزعجه، فسبحان الوهاب الذي منح كل مخلوق، ما يناسبه من الصفات والمزايا، ليستمر ركب الإنجاب والحياة، ولهذا أوصى الرسول ﷺ بالنساء لضعفهن، فقال: (استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، إن ذهبت تقيمته كسرته، وكسرها طلقها) رواه البخاري.

باب (المعاصي من أمر الجاهلية)

٣٠ - عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (إِنِّي سَابَيْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ حَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعْيُوهُمْ»).

[الحديث طرفاه في: ٢٥٤٥، ٦٠٥٠]

شرح الألفاظ

(سَابَيْتُ رجلاً) أي شتمته، والسب هو القذف بالكلام البذيء، ممّا لا يتناسب مع خلق المسلم، والمراد بالرجل الذي سبّه: عبده ومملوكه.

(فَعَزَّزْتُهُ بِأَمِّهِ) أي نَسَبْتُهُ إِلَى الْعَارِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ السُّودَاءِ، وَكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً فَلَنْتُ مِنْهَا.

(فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ) أي فِيكَ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الذَّمِيَّةِ.

(إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ) الْخَوَلُ: الْمَمَالِكُ وَالْعَبِيدُ مِنَ الْأَتْبَاعِ وَالْخُدَمِ، يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ، وَالذَّكَرُ وَالْأُنْثَى، وَالْمُرَادُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعَبِيدَ هُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ، فَلَا يَنْبَغِي الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَكُمْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ.

(وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ) أي لَا تَكَلِّفُوهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يُعْجِزُهُمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْقِيَامَ بِهِ.

(فَأَعَيْنُوهُمْ) أي إِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ شَيْئًا شَاقًّا، فَأَعِينُوهُمْ بِأَنْفُسِكُمْ بِالمُسَاعَدَةِ عَلَيْهِ.

سبب ورود الحديث

ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ سَبَبَ هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، وَوَضَّحَ الْقِصَّةَ الَّتِي وَقَعَتْ بِشَأْنِ ذِكْرِهِ، فَقَالَ بِسَنَدِهِ عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ: (لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ - مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمَنُورَةِ - وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غِلَامِهِ حُلَّةٌ مِثْلُهَا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ أَيَّ كَيْفٍ تُلْبَسُ عَبْدُكَ مِثْلَ مَا تُلْبَسُ؟ فَقَالَ لِي: إِنِّي سَابَيْتُ رَجُلًا...) فَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

شرح الحديث

كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُلْبَسُ عَبْدَهُ مِمَّا يَلْبَسُهُ، وَيُطْعِمُهُ مِمَّا يَأْكُلُ مِنْهُ، وَيَعَامِلُهُ مَعَامِلَةَ الْأَخِ لِأَخِيهِ، لِأَنَّهُ سَمِعَ مَوْعِظَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ لَهُ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْعَبِيدَ إِخْوَةٌ لَكُمْ، فَمَنْ كَانَ يَمْلِكُ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَلْيُطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَلْيَلْبَسْهُ مِنْ لِبَاسِهِ، وَلَا يَكْلَفْهُ بِمَا يَشْقُو عَلَيْهِ، فَمَا أَعْظَمَ رِعَايَةَ الْإِسْلَامِ، لِلْعَبِيدِ وَالْخُدَمِ وَالضَّعَفَاءِ!؟

ما يستفاد من الحديث

الأول: فِي الْحَدِيثِ النَّهْيُ عَنِ سَبِّ الْعَبِيدِ، وَالْخُدَمِ، وَالْمَمَالِكِ، وَالْحَثُّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ.

الثاني: وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَعْيِيرُ أَحَدٍ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَكْرُوهِ، فِي نَفْسِهِ، أَوْ نَسَبِهِ، أَوْ عَشِيرَتِهِ، فَالِنَّاسِ كُلُّهُمْ أَبْنَاءُ آدَمَ، وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ.

الثالث: وفيه عدمُ الترفعِ على المسلم، وإن كان عبداً مملوكاً له، أو كان خادماً، أو أجيراً عنده.

الرابع: وفيه استحبابُ الإطعامِ مما يأكل منه السيد، والإلباسِ ممّا يلبس، وألاً يستأثر على عياله.

الخامس: وفيه البُعدُ عن عادات الجاهلية، والتخلُّقُ بأخلاق الإسلام الفاضلة الحميدة.

باب (الاقتتال بين المسلمين)

٣١ - عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ).

[الحديث طرفاه في: ٦٨٧٥ ، ٧٠٨٣]

سببُ ذكر الحديث

سببُ ورود الحديث ما ذكره البخاري عن (الأحنف بن قيس) أنه قال: ذهبَ لأنصرَ هذا الرجل - يريد عليَّ بن أبي طالب ابنَ عمِّ رسول الله ﷺ - فلقيني (أبو بكر) فقال: أين تريد أن تذهب؟ قلت: أنصرُ ابنَ عمِّ رسول الله ﷺ علياً، فقال لي: ارجع، فإنني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما...) وذكر الحديث.

شرح الألفاظ

(إذا التقى المسلمان) أي إذا حمل كل منهما السلاح على أخيه، يريد قتله.
(فالقَاتِل والمَقْتُول في النار) أي كلٌّ من القاتل والمقتول، يستحقُّ دخول النار، إلا أن يعفو الله عنهما، أو عن أحدهما.

(هذا القاتل)؟ أي شأنه واضح، يستحق دخول النار، لأنه قَتَلَ أخاه المسلم.
(فما بالُ المقتول)؟ أي لماذا يدخل المقتول النار، وقد قَتَله صاحبه، ولم يقتل هو الآخر؟

(كان حريصاً على قتل صاحبه) أي كان المقتول عازماً على قتل أخيه المسلم، ولكن الأول ابتدره فقتله، فالقاتل يدخل النار بسبب القتل، والآخر بالنية والعزم.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه التحذير من حمل السلاح وقت الفتنة، والبعد عن كل أسباب العدوان.

الثاني: وفيه أن العزم على الذنب، وعقد القلب عليه، معصية لله توجب العقاب.

الثالث: وفيه بيان معنى أن (القاتل والمقتول في النار) أي أنهما يستحقان دخول النار، إلا أن تكون مشيئة الله بالعمو عنهما.

الرابع: وفيه أنه لا يُراد بدخول النار: الخلود فيها، إلا أن يستحل الواحد منهما قتل أخيه، فيدخلها باستحلاله دم أخيه المسلم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ...﴾ [النساء: ٩٣].

الخامس: وفيه أن ما حدث بين الصحابة من قتال، فإنما كان عن اجتهاد من الفريقين، وأمره إلى الله عز وجل، نحسن الظن بهم، لأنهم كانوا مجتهدين متأولين، لم يقصدوا معصية، ولا خطأ الدنيا، ونكفأ ألسنتنا عنهم، كما قال الإمام مالك رحمه الله: «تلك دماء طهر الله أيدينا منها، فلا نلوث بها ألسنتنا»!!

باب (ظلم دون ظلم)

٣٢- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيْنَا لَمْ يَظْلِمِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. [لقمان: ١٣]

[الحديث أطرافه في: ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧]

شرح الألفاظ

(**لم يلبسوا**) اللبسُ: الخلطُ، يُقال: لبس عليه الأمر والتبس أي اختلط عليه الأمر، والمراد بالآية: أي لم يخلطوا إيمانهم بوثنية وشرك، ومعنى (بظلم) يراد هنا به: الشرك، ولا يقصد به ما يفعله الإنسان من المعاصي والآثام، وقد جاء تفسيره في القرآن، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهو من باب تفسير القرآن بالقرآن.

قال الخطابي: كان الشرك عند الصحابة أكبر من أن يُوصَفَ بالظلم، فحملوا الظلم على الذنوب والمعاصي، فسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فنزلت الآية في سورة لقمان، توضّح الغرض من الظلم، بأنه الشرك بالله، إذ لا ظلم أعظم منه، فهو من العام الذي يراد به الخصوص.

(**الأمّن**) أي الأمان من عذاب الله، حيث اجتنبوا أكبر أنواع الظلم وهو الشرك والكفر بالله.

(**وهم مهتدون**) أي هم من أهل الهداية والرشاد، والبُعْد عن محارم الله.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه أنّ الظلم له مراتب متفاوتة، أعظمها الإشراك بالله، الذي هو أعظم الذنوب والكبائر.

الثاني: وفيه إطلاق العام وإرادة الخاص، فقد أطلق لفظ «الظلم» وأراد به الإشراك بالله تعالى.

الثالث: وفيه تفسير القرآن بالقرآن، وهو من أعظم أنواع التفسير وأفضلها، إذ بيّن تعالى في آية لقمان، أن المراد بالظلم هو «الإشراك بالله»، دون غيره من المعاصي، ولهذا قال ﷺ لمن سأل: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال: (ليس ذاك، ألم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟) حيث وصفه بالعظم.

الرابع: دلّ الحديث على أنّ المعاصي مهما كبرت لا تُسمى شركاً، خلافاً للرافضة، ومن ذهب إلى إدخال أهل المعاصي في نار الجحيم.

الخامس: توضيح الرسول ﷺ للأمة ما عمّض عليهم، من كلام الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

باب (علامات المنافق)

٣٣ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَؤْتِمِنَ خَانَ).
[الحديث أطرافه في: ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥]

شرح الألفاظ

(آيَةُ) أي علامةُ المنافق إحدى ثلاث خصال: الكذب، وإخلاف الوعد، والخيانة للأمانة.

(المنافق) النفاق: مخالفةُ الباطن للظاهر، وهو نوعان: نفاقٌ في الاعتقاد، وهو كفرٌ خبيثٌ، ونفاقٌ في العمل، وهو معصية ورياء.

(وَعَدَ أَخْلَفَ) أي إذا وعد أحداً بوعده، أو عهد، أخلف فيه، ولم يف بما وعد.

(اتُّمِنَ خَانَ) أي إذا اتَّمتنه أحدٌ، ووضع عنده أمانته، جحدتها عليه، وخانه فيها.

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث أنَّ على المسلم، اجتنابَ هذه الصفات الذميمة: (الكذب، والخيانة، وإخلاف الوعد).

الثاني: وفيه أنه لا يُراد بالنفاق (نفاق العقيدة) إنما هو نفاقُ العمل، وهو معصية لا إشراك.

الثالث: وفيه أنَّ من الأعمال الذميمة، ما يَصْلُحُ أن يوصف صاحبه بالنفاق، ويدلُّ عليه الحديث الآخر في البخاري: «أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن، كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدَّعها» - أي يتركها - ثم عدَّ ﷺ الثلاث، وزاد عليها (وإذا خاصَمَ فَجَرَ) كما في الرواية الثانية عند البخاري. أي زاد في فجوره وعدوانه، وتعدَّى الحدود الشرعية.

تذكيرٌ وتبصير

ذكر بعضُ العلماء أنَّ المراد بالمنافقين، هم الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، حدَّثوا بأنهم آمنوا فكذبوا، واثتمنوا على دينهم فخانوا، ووعدوا الرسول ﷺ بنصرة الدين فأخلفوا، وهو قول عطاء بن أبي رباح، وذكروا في ذلك قصةً حدثت بين «الحسن البصري»، و«عطاء» وهي كما أخبر عنها الإمام العيني في كتابه (عمدة القاري بشرح صحيح البخاري).

ذكرُ القصة: حُكي أنَّ رجلاً قال لعطاء: سمعتُ الحسنَ البصريَّ يقول: من كانت فيه ثلاثُ خصال، لم أتحرج أن أقول عنه: إنه منافق! (مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اثْتَمَنَ خَانَ!!).

فقال عطاء: إذا رجعتُ إلى الحسن فقل له: إنَّ عطاءً يُقرئك السلامَ، ويقول لك: اذكرُ إخوةَ يوسف عليه السلام، فلن ينجو أهلُ الإسلام أن يكون فيهم «الكذبُ، والخيانةُ، والخُلْفُ في الوعد»، ونحن نرجو أن يعيدهم الله من النفاق، وما استقرَّ أمرُ النفاق قط، إلَّا في قلب جاحد، وقد قال الله تعالى في حقِّ المنافقين ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: ٣] فذكر زوالَ الإسلام عن قلوبهم، ونحن نرجو أن لا يزول الإيمانُ عن قلوب المؤمنين!.

فرجع الرجل إلى الحسن، وأخبره بما قال عطاء، فقال له: جزاك الله خيراً، ثم قال لأصحابه: إذا سمعتم مني حديثاً، فحدِّثتم به العلماء، فما كان غيرَ صواب، فردُّوا عليَّ جوابه!!

ذكر هذه القصة البذر العيني في كتابه (عمدة القاري).

حديثٌ عجيبٌ يوضح معنى النفاق

ذكر أنَّ سعيدَ بن جبير أهداه هذا الحديث (آيةُ المنافق ثلاث) فسأل عنه ابنَ عمر، وابنَ عباس، فقالا له: أهْمُنَا من ذلك يا ابنَ أخي ما أهداك، فسألنا عنه رسولَ الله ﷺ، فضحك النبيُّ عليه السلام، ثم قال لنا: (ما لكم ولهن؟ إنما خَصَصْتُ بذلك المنافقين).

أمَّا قولِي: إذا حدَّثَ كذب، فذلك فيما أنزل الله عليَّ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَفِقُونَ﴾ الآية [المنافقون: ١]، فهل أنتم كذلك؟ قلنا: لا!!

وأمَّا قولِي: «إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ» فذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَا

مِنْ فَضْلِهِ لَنَصْدَقَنَّ... ﴿الآيات الثلاث [التوبة: ٧٥ - ٧٧] أفأنتم كذلك؟ قلنا: لا! وأما قولي «إذا اتّمن خان» فذلك فيما أنزل الله عليّ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ... إلى قوله: وَحَلَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فالمنافق لا يفعل ذلك إلا في العلانية، فهل أنتم كذلك؟ قلنا: لا، قال: فأنتم من ذلك براء!! انظر فتح الباري لابن حجر.

بَابُ (عَلَامَةُ الْمُنَافِقِينَ أَرْبَعٌ)

٣٤- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ التُّقَى، حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ).

[الحديث طرفاه في: ٢٤٥٩، ٣١٧٨]

شرح الحديث

هذا الحديث كسابقه (آية المنافق ثلاث...) وزاد فيه لفظ «وإذا خاصم فجر» أي إذا تخاصم مع أحد من الناس، زاد في عدوانه وفجوره، فلا يدع كلمة فاجرة، إلا رماه بها، وهذه من صفات الفجار، لا من صفات المؤمنين الأبرار، الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي قالوا قولاً لطيفاً، يسلمون به من الإثم والأذى، لا يجهلون على أحد، ولا يفحشون في كلامهم.

وفي الحديث الشريف: (ليس المسلم بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء) رواه الترمذي وهو حديث حسن.

ومعناه: ليس بكامل الإيمان، من يقع في أعراض الناس، بالسب واللعن، وليس كامل الإيمان بالفاحش في مقاله، ولا البذيء في فعله وكلامه...

ودلّ الحديث الشريف: على أن المنافق الخالص: من اجتمعت فيه هذه الخصال

الأزبُع الذميمة، وإذا كان فيه خصلة واحدة منهن، كان فيه خصلة من خصال المنافق، حتى يتركها ويتخلّى عنها.

باب (قيام ليلة القدر من الإيمان)

٣٥ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ).

[الحديث أطرافه في: ٣٧، ٣٨، ١٩٠١، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩، ٢٠١٤]

شرح الألفاظ

(مَنْ يَقُمْ) المراد بالقيام: إحياء ليلة القدر، بالصلاة، والطاعة، وذكر الله، وكل ما فيه قربة لله عز وجل، مأخوذ من القيام للصلاة بمعنى الطاعة والعبادة لله، قال تعالى: ﴿فُرِئِلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] أي صلّ لربك.

(ليلة القدر) أي الليلة المباركة التي ابتداءً فيها نزول القرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] سميت ليلة القدر لشرفها، ورفعة قدرها عند الله تعالى، لأنها ليلة إشراق النور الإلهي، على أهل الأرض، والقدر معناه: الشرف والرفعة، وإعلاء المرتبة والمنزلة.

(إيمانا واحتسابا) أي تصديقاً بوعده الله عز وجل، وطلباً لمرضاته، لا لرياء أو سمعة.

(غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) أي مُحِيت ذنوبه السابقة، بفضل تلك الليلة المباركة، التي أحياها بالطاعة والعبادة، وليس المراد هو أن لا ينام تلك الليلة، بل أن يخصّص جزءاً كبيراً منها، بالصلاة، والذكر، والإقبال على الله تعالى.

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث الشريف الحرص على قيام ليلة القدر، بإحياء معظم الليلة في طاعة الله، والتهجد بالصلاة، والذكر، وتلاوة القرآن.

الثاني: وفيه محو الذنوب التي سبقت من الإنسان، ما عدا حقوق العباد، فلا بدّ من أدائها، فالتّي تُغفر وتُمحى هي حقوق الله عز وجل.

الثالث: وفيه الإخلاص في العبادة، وجعلها خالصة لوجه الله الكريم، من دون غرض آخر، فإنّ الله لا يقبل من العمل، إلّا ما كان خالصاً له ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾ [البينة: ٥].

تذكير لطيف

سبب فضل هذه الليلة:

ما أعظم ليلة القدر! وما أفخم شأنها!! إنّ قيام ليلتها يكفّر الله به ذنوب ما حصل من الإنسان، طوال عمره السابق.

قال ابن عباس: عملها، وصيامها، وقيامها، خير من ألف شهر. أي تعادل عبادة ألف شهر (حوالي ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر)!

أمّا سبب نزول سورة القدر، فهو ما رواه ابن أبي حاتم (أنّ رجلاً من الأمم السابقة - أي من بني إسرائيل - حمل السلاح وجاهد في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله ﷺ وأصحابه من ذلك، وتمنّى رسول الله عليه الصلاة والسلام لأمته، أن يبارك الله في أعمارها، وقال يا رب: جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلّها أعماراً. فأعطاه الله (ليلة القدر)، وقال له: ليلة القدر هذه خير لك ولأمتك من ألف شهر، جاهد فيها الرجل هذه الأعوام الطويلة!) فما أكرمها من ليلة!! وما أعظمه من فضل وعطاء، لهذه الأمة المحمدية!! على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.!

باب (الجهاد من الإيمان)

٣٦ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ - لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيْمَانٌ بِي، وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي - أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، أَوْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي، مَا قَعَدْتُ خَلْفَ

سَرِيَّةً، وَلَوْدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ).
[الحديث أطرافه في: ٢٧٨٧، ٢٧٩٧، ٢٩٧٢، ٣١٢٣، ٧٢٢٦، ٧٢٢٧، ٧٤٥٧، ٧٤٦٣]

شرح الألفاظ

(اُنْتَدَبَ اللَّهُ) أي ضَمِنَ وتكفل تعالى، بتحقيق ما وعد به المجاهد، من الأجر والمثوبة.

(لمن خرج في سبيله) أي خرج مجاهداً لنصرة الدين، وقيد الخروج بكونه في سبيل الله، ليخرج من قاتل للشجاعة، أو للحمية، أو رياءً، أو لمغنم دنيوي، وأمثال ذلك.

(لا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيْمَانُ بِي) أي لا يخرج به إلا التصديق بوعده الله بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

(وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي) أي أن يعتقد ويؤمن، بما أخبر به الرسل الكرام، من ثواب المجاهد في سبيل الله.

(أَنْ أَرْجِعَهُ) أي أردّه إلى مسكنه، ظافراً، غانماً، بما اكتسبه من الأعداء من غنائم.

(وَلَوْلَا أَنْ أَشَقُّ) أي أكلفهم المشقة، بخروجهم للجهاد، كلما خرجت لغزوة من الغزوات، لاقتدائهم بي، وذلك بوقعهم في المشقة.

(خِلَافَ سَرِيَّةٍ) السَّرِيَّةُ: هي القطعة من الجيش، أي لولا المَشَقَّةُ على أمتي، ما قعدت عن الخروج للغزو، مع كل جماعة تخرج للجهاد في سبيل الله، ولكن يشق عليهم التخلف عن الخروج معي، ولا تطيب أنفسهم لعدم الخروج.

(لَوَدِدْتُ أَنْ أُقْتَلَ) أي تمنيت أن أقتل في سبيل الله، ثم يُحييني الله مرةً أخرى، فأجاهد فأقتل ثانية، ثم يحييني الله مرةً ثالثة، ثم أموت شهيداً في سبيل الله.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله، لعظيم أجر الشهيد.

الثاني: وفيه تمني نيل الشهادة مرّاتٍ عديدة، كما تمنّاها رسول الله ﷺ.

الثالث: وفيه بيان شدة شفقة الرسول ﷺ على أمته، ورأفته بهم.

الرابع: وفيه جواز ترك بعض المصالح، لمصلحة أرجح منها، كما ترك الرسول ﷺ الخروج مع كل سرية تخرج للجهاد، كيلا يشق على أمته.

تذكير وتبصير

(من روائع الأحاديث في ثواب المجاهدين)

ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لَمَّا أَصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ - أَيِ اسْتَشْهَدُوا - جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ، مَعْلُوقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ... فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَأْكُلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يَبْلُغُ إِخْوَانَنَا أَنَّنَا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ؟ لئلا يزهّدوا في الجهاد، ولا يجبنوا عند الحرب؟ فقال الله عز وجل: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...﴾ [آل عمران: ١٦٩] أخرجه مسلم في صحيحه.

بَابُ (فَضْلِ قِيَامِ رَمَضَانَ)

٣٧ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ).
[الحديث طرفه في: ٣٥].

تقدم شرحه في الحديث رقم ٣٥.



باب (فضل صيام رمضان)

٣٨ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ).

شرح الألفاظ

(إيمَانًا واحتِسَابًا) أي تصديقاً بوعده الله الكريم، وطلباً للأجر من الله العليّ الكبير.

(غُفِرَ لَهُ) أي مُحِيت عنه ذنوبه الصغائر، أمّا الكبائر فلا بُدَّ فيها من توبة نصوح، لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَرُدُّكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. فالمراد بالسيئات: الصغائر، لأن الله تعالى شَرَطَ في تكفير الذنوب اجتناب الكبائر، هذا هو الظاهر من الحديث الشريف، والله أعلم.

شرح الحديث

أخبر ﷺ أن من صام رمضان، امتثالاً لأمره تعالى، حيث فرض على المسلم صيام الشهر المبارك، تصديقاً لوعده، وطلباً للأجر والثواب من الله عز وجل، فإن الله يكرمه بمغفرة ذنوبه، التي كان قد اقترفها، كرمًا منه تعالى وفضلاً، ذلك لأن الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، كلّها عبادات، تطهر المؤمن، ممّا حصل منه من الذنوب والآثام، والله ذو الفضل العظيم، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه أن صيام رمضان مغفرة للذنوب والآثام.

الثاني: وفيه أنه فريضة على كل مسلم ومسلمة.

الثالث: وفيه وجوب إخلاص العبادة والطاعة لله، ليفوز بذلك الأجر العظيم ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

بَابُ (الدِّينِ يُسْرٌ)

٣٩ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدُّوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْعَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ).

[الحديث أطرافه في: ٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٧٢٣٥]

شرح الألفاظ

(الدِّينُ يُسْرٌ) أي دين الإسلام كله يُسْرٌ وسهولة، وليس فيه ما يشقُّ على الناس، ولا ما يصعبُ عليهم من شرائع الإسلام.

(ولن يشادَّ الدين) أي لن يتنطَّع أحدٌ في الدين، ويشدُّد على نفسه، ويترك الرفق، واليسر، والأسهل، إلَّا غلبه الدينُ بيسره وسماحته.

(فَسَدُّوا) أي خذوا بالقصد من أحكامه، من غير إفراط ولا تفريط، والزموا السداد - أي الصواب - والتوسط في العمل.

(وقاربوا) أي إن لم تستطيعوا الكمال، والأخذ بالأكمل، فاعملوا بما يقرب

منه.

(واستعينوا بالعدوة) أي استعينوا على طاعة الله والعبادة، في البكور والأوقات المنشطة.

(والروحة) أي وفي أوقات الفراغ من أعمالكم بعد الزوال، وأصل العدوة: السيرُ أولَ النهار، والروحة: السيرُ بعد الزوال من بعد الظهر.

(وشيء من الدلجة) أي شيء من أول الليل أو آخره.

قال العلامة ابن حجر: وعبر فيه بالتبويض (وشيء من الدلجة) لأنَّ عملَ الليل

أشَقُّ على النفس من عمل النهار، وهذه الأوقات أطيبُ أوقات المسافرين، وكأنه ﷺ يخاطب مسافراً إلى مقصد له، فنَبِّهه إلى أوقات نشاطه، لأن المسافر إذا سافر، واستمرَّ في سفره الليل والنَّهار، انقطع وعَجَز، وإذا تحرَّى السير في هذه الأوقات المنشَّطة، أمكنه المداومة من غير مشقة، وحُسُنُ هذه الاستعارة، أنَّ الدنيا في الحقيقة دارُ نُقْلة إلى الآخرة، وأنَّ هذه الأوقات أروحُ ما يكون فيها البدنُ للعبادة . اهـ . فتح الباري .

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث الحضُّ على الرفق في العمل، وتَرْكُ إجهاد النفس بما يشقُّ عليها .

الثاني: وفيه أنَّ الأخذ بالقليل مع الدوام، خيرٌ من الكثير مع الانقطاع .

الثالث: وفيه التنبيه على أوقات النشاط للعبادة، لأن الضحى، والرواح، والليل أفضل أوقات النشاط .

الرابع: وفيه عدمُ تكليف النفس بما يُرهقها، لقوله ﷺ: (عليكم من الأعمال ما تطيقون) .

الخامس: وفيه بيانُ يسر الدين وسهولته، وأنَّ المتشدد والمتنطع فيه خاسر غير رابح، كما قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لَا أَرْضاً قَطَعَ، وَلَا ظَهراً أَبْقَى) والمعنى: أن الذي يُزهِق دابته على السَّير السريع، لا يصل إلى مراده، ويُهْلِك دابته .

بابُ (الصلاة من الإيمان وتحويل القبلة)

٤٠ - عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ - أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ - وَأَنَّهُ صَلَّى قَبْلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْراً، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْراً، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قَبْلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةُ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاغِبُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ

صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَكَّةَ، فَذَارُوا - كَمَا هُمْ - قِبَلَ الْبَيْتِ - وَكَانَتْ
الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى
وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ).

[الحديث أطرافه في: ٣٩٩، ٤٤٨٦، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢]

شرح الألفاظ

(صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ) أي صَلَّى جهة بيت المقدس، لأنها كانت القبلة
للمسلمين، في بداية الإسلام.

(يَعْجَبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبَلَتُهُ) أي يحبُّ أن تكون قِبَلَتُهُ البيتَ العتيق - أي الكعبة
المشرفة - لأنها قبله خليل الرحمن (إبراهيم) عليه السلام، ومعنى (قِبَلَ) أي جهة.

(أَشْهَدُ بِاللَّهِ) أي أحلف لكم بالله، أنني صليتُ مع رسول الله جهة الكعبة
المشرفة.

(فَذَارُوا كَمَا هُمْ) أي استداروا نحو الكعبة، وهم لا يزالون في الصلاة، بعد أن
كانوا متوجهين نحو بيت المقدس.

(أَنْكَرُوا ذَلِكَ) أي أنكر اليهود وأهل الكتاب على الرسول ﷺ انتقاله من بيت
المقدس في الصلاة إلى توجهه إلى البيت العتيق، وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى وطنه
الأول، وخالف ديننا، بعد أن كانوا معجبين بتوجهه إلى قبلتهم (بيت المقدس).

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث دليل واضح، على وقوع النسخ في الأحكام التشريعية،
حيث نُسخت الْقِبْلَةُ، وذلك من التوجه لبيت المقدس، إلى التوجه إلى البيت الحرام.

الثاني: وفيه بيانُ شَرَفِ المصطفى ﷺ وكرامته على ربه، حيث حوَّله تعالى إلى
القبلة التي يحبُّها ﴿ فَلَتَوَلَّيْنَاكَ قِبْلَةً رَضِينَهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

الثالث: فيه الدليلُ على قبول خبر الواحد، حيث تَوَجَّه الْمُصَلُّونَ إلى الكعبة
المشرفة، بخبر شخص واحد.

الرابع: وفيه جواز الصلاة الواحدة إلى جهتين، كما فعل الصحابة الكرام، حيث

صلُّوا إلى القِبْلَتَيْنِ، واشتهر المسجد الذي كانوا يصلُّون فيه باسم (مسجد القِبْلَتَيْنِ).
الخامس: وفيه بيان ما كان من أصحاب النبي ﷺ من الحرص على دينهم، والشفقة على إخوانهم، حيث قالوا يا رسول الله: كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلُّون إلى بيت المقدس؟ هل تُقبل صلاتهم؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني صلاتكم. سمى الصلاة إيماناً، لأنها أعظم أركان الإسلام.
السادس: وفي هذا التحويل من قبلة إلى قبلة، «معجزة غيبية» للقرآن، حيث أخبر الله عز وجل قبل تحويل القبلة، إلى ما سيقوله اليهود والمنافقون قبل حدوثه: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا...﴾ [البقرة: ١٤١].

تذكير وتبصير

كان رسول الله ﷺ وهو بمكة يتوجّه إلى بيت المقدس بأمر من الله، ولمّا هاجر إلى المدينة المنورة، بقي ستّة عشر شهراً يتوجه إلى القبلة الأولى «بيت المقدس» ولكنه ﷺ كان يتشوّق إلى أن يحوِّله الله إلى قبلة أبيه (إبراهيم) إلى الكعبة المشرفة، ويردّد بصره إلى السماء، بانتظار أمر الله له بالتحويل، فنزلت الآية ﴿قَدْ رَأَى نَفْلًا وَجْهًا فِي السَّمَاءِ فَلَتَوَلَّىٰ ظَنِّكَ قِبْلَهُ تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]. فكان هذا الأمر، تحقيقاً لما كان يشتهي عليه أفضل الصلاة والتسليم، فحوّلت القبلة إلى البيت الحرام.

باب (حُسنِ إسلام المرء)

٤١ - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، يُكْفَرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ: الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا).

شرح الألفاظ

(إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ) أي اعتنق الإسلام، والحكمُ يشمل الرجال والنساء، وذكره

بلفظ المذكر تليياً، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٦٢] عامٌ لكل مؤمن ومؤمنة، كذلك العبدُ يشمل كلَّ ذكرٍ وأنثى ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

(فَحَسَنَ إِسْلَامُهُ) أي صار إسلامه حسناً، بدخوله فيه بالظاهر والباطن، حقيقةً وعزماً، لا صورةً وشكلاً، وذلك باعتقاده وإخلاصه، ومراقبته لله عز وجل.

(كَانَ زَلَفَهَا) أي تُغفر له جميع ذنوبه، التي كان أسلفها وقدمها، لأن الإسلام يهدم ما كان قبله، لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

(الْقِصَاصُ) أي كان بعد إسلامه، المجازاة له، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. (إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهَا) أي إلا أن يسامحه الله، ويعفو عن أخطائه، تفضلاً منه وكرماً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾ [النساء: ٤٨].

شرح الحديث

أخبر سيّد المرسلين محمد ﷺ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يُؤَاخِذُ بِعَمَلِهِ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، فَيُعْطَى عَلَى الْحَسَنَةِ عَشْرَةٌ أَضْعَافُهَا، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ، وَعَلَى السَّيِّئَةِ مِثْلُهَا دُونَ زِيَادَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. وهذا كله من فضل الله، وكرمه على عباده، أنه يضاعف لهم الحسنات، ولا يضاعف عليهم السيئات، وويل لمن غلبت سيئاته حسناته!

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث الشريف، بيان سعة فضل الله على عباده، حيث يضاعف الله لهم الحسنات، إلى ما لا يعلم قدره إلا الله، ولا يضاعف عليهم الذنوب والمعاصي، فضلاً منه ورحمة.

الثاني: وفيه أن الإسلام يهدم جميع الذنوب والآثام، فلا يؤاخذ الله الكافر بإجرامه ومعاصيه، إذا أسلم وحسن إسلامه.

الثالث: وفيه أن المسلم إذا ارتكب المعاصي، ولم يتب منها، فهو تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء تجاوز عنه، وإن شاء عاقبه وعذبه.

الرابع: وفي الحديث الردُّ عَلَى الخوارج، الذين يكفُّرون بالذنوب، ويوجبون خلود المذنبين في النار.

بَابُ (مُضَاعَفَةِ أَجْرِ الْمُؤْمِنِ)

٤٢ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا).

تقدّم شرحه في الحديث رقم (٤١).

بَابُ (أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ)

٤٣ - عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟». قَالَتْ: فَلَانَةٌ تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا. قَالَ: «مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تَطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا! وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»).

[الحديث طرفه في: ١١٥١]

شرح الألفاظ

(فَلَانَةٌ) اللفظة كناية عن اسم علم لمؤنث، واسمها «الحولاء الأسديّة». (تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا) أي تذكر لي أنها كثيرة الصلاة، لا تنام من الليل، وهي تنهجد.

(مَهْ) اسمُ فعلٍ أمرٍ، معناه الرَّجْرُ، أي لَتَكْفُفْ عن هذا الصَّنِيعِ، وأصلُ هذه الكلمة: ما هذا؟ على وجه الإنكار، طرحوا بعض الحروف، فقالوا: مَهْ، مَهْ.

(عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ) أي اشتغلوا من الأعمال بما تطيقونه، وتستطيعون المداومة عليه، والمراد النهي عن صلاة جميع الليل.

(لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا) المَلَلُ: استثقال النَّفْسِ للشيء، ونفورُها عنه، وهو محالٌّ على الله تعالى، باتفاق أهل العلم، لأنَّ صفاتِ النقص لا تُنسب إلى الله تعالى.

قال الخطابي: معناه لا يتركُ الله ثوابَكُمْ على العمل، ما لم تقعوا في المَلَلِ، وذلك أنَّ من مَلَّ شيئاً تركه، فكُنِيَ عن الترك: بالَمَلَلِ.

أقول: اللفظُ واردٌ على وجه المشاكلة والازدواج، وهي المشابهة باللفظ مع الاختلاف بالمعنى، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَجَزَّوُا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] سَمَّاهَا سيئةً مع أنها ليست بسيئة، لأنها مجازاةٌ على العدوان، على وجه «المشاكلة» أي المشابهة، لتزدوج اللفظة الثانية مع الأولى، وكما قال الشاعر:

أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَتَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

أراد فنجازيه على فعله، ونردُّ عليه سَفْهَه، سَمَّاه جهلاً، مع أنَّ الجهل لا يَفْخَرُ به عاقل.

(أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ) أي أحبُّ العبادَةِ والطاعةَ لله، ما داوم عليه صاحبه، وإن كان العملُ قليلاً... مثاله من صَلَّى في الليل أربع ركعات، وداوم عليها، خير من الذي يصلي أربعين ركعة، أو يقوم الليلَ كلَّهُ، ثم ينقطع عن العبادَةِ.

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث الشريف دلالةٌ على وقوع (المجاز) في السُّنَّةِ النبويَّةِ المطهَّرة، وهو إطلاقُ المَلَلِ، وإرادةُ لازمِهِ، وهو تركُ الثواب، ويُسمَّى بالمجاز المرسل.

الثاني: وفيه جوازُ الحلف من غير استحلاف، إذا كان فيه حثٌّ على طاعة، أو تحذيرٌ من محذور، لقوله ﷺ: «فوالله لا يَمَلُّ الله» لتأكيد الأمر، وبيان أهميَّته.

الثالث: وفيه فضيلةُ الدَّوامِ على العمل، وأنَّ القليلَ الدائم، خيرٌ من الكثير المتقطع.

بَابُ (زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ)

٤٤ - عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُّ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُّ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وَفِي قَلْبِهِ وَزَنُّ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ).

[الحديث أطرافه في: ٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠، ٧٤٤٠، ٧٥٠٩، ٧٥١٠، ٧٥١٦]

شرح الألفاظ

(وزنُ شعيرة) الشعيرة واحدة الشعير، والبرّة هي الواحدة من حبّ القمح.
(ذرةٌ من خير) المراد بالخير: الإيمان، بدليل الرواية الأخرى (من خيرٍ من إيمان).

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث الشريف، دلالة على زيادة الإيمان ونقصه، حيث فاوت بين الأعمال الصالحة، القليل منها والكثير، كقوله تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦، ٧].

الثاني: وفيه دليل على دخول عصاة المؤمنين الموحدين النار، للتطهير لا للخلود، لأن المؤمن لا يُخلد في النار.

الثالث: لا يُخلد أحدٌ من أهل الكبائر في نار الجحيم، إذا مات على الإيمان، لقوله ﷺ: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله... الحديث).



بَابُ (كَمَالِ الدِّينِ بِنُزُولِ آيَةِ الْمَائِدَةِ)

٤٥ - عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرُؤُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا. قَالَ عُمَرُ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، قَالَ عُمَرُ: قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ).

[الحديث أطرافه في: ٤٤٠٧، ٤٦٠٦، ٧٢٦٨]

شرح الألفاظ

(أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ) اسم هذا الرجل (كعب الأحبار) كما ذكره الطبري في تفسيره، وقد جاء مع جماعة من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ) أي آية نزلت في القرآن العظيم، عليكم معشر المسلمين.
(لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا) أي لو نزلت علينا معشر اليهود، لجعلنا يوم نزولها يوم عيد لنا، وعظمتنا ذلك اليوم، وجعلناه عيداً لنا في كل سنة.
(قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟) أي أي آية تقصد من القرآن؟ قال: قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية.
(قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ) أي عرفنا يوم نزولها، فنحن ما أهملنا هذا العيد، ولا ضيعناه، فهو يوم عيد عظيم لنا، ولذلك يسمى (عيد الأضحى المبارك).

تذكير وتبصير

نبهه الفاروق رضي الله عنه إلى أنه يعرف اليوم، والمكان، والزمان الذي نزلت فيه، فقد نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ يوم عرفة، بعد العصر، وكان (يوم الجمعة)، فهو عيد على عيد، في يوم الحج الأكبر.

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث بيانُ حسدِ أهل الكتاب (اليهود) للمسلمين على آية واحدة، لعظم هذه الآية، فكيف لا يحسدوننا على نعمة القرآن كله؟

الثاني: وفيه تعظيمُ حرمة الأيام التي نزل فيها القرآن الكريم، على خاتم المرسلين ﷺ.

الثالث: وفيه بيانُ أنَّ الله عزَّ وجل هو الذي اختار للمسلمين هذا الدين، لقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

توضيح وبيان

هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] من أواخر ما نزل من القرآن، من أمور الحلال والحرام، وليست آخر الآيات نزولاً، فقد نزلت قبل وفاة النبي ﷺ بشمانين يوماً آية ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] وهي آخر آية نزلت من القرآن.

تنبيه لطيف هام

القرآن العظيم آخر الكتب السماوية، خصَّ الله به الأمة المحمدية، وامتنَّ علينا بنزوله بقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي أنزلنا عليكم كتاباً عظيماً جليلاً، فيه شرفكم، وعزكم، ومجدكم، أفلا تدركون هذه النعمة الجليلة؟ فتشكرون ربكم عليها؟ وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإيمان.

بابُ (الزكاة من الإسلام)

٤٦ - عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدٍ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَيَّ

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، ثَائِرُ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ، وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ». فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَصِيَامُ رَمَضَانَ». قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ: فَأَذْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، وَلَا أَنْقُصُ، قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ).

[الحديث أطرافه في: ١٨٩١، ٢٦٧٨، ٦٩٥٦]

شرح الألفاظ

(من أهل نجد) قال في الصحاح: نجد من بلاد العرب، وكل ما ارتفع من تهامة إلى أرض العراق فهو نجد. اهـ. أقول: اشتهرت مدينة (الرياض) بأنها في ديار نجد، وسكانها يعرفون بالنجديين، وهي العاصمة للدولة السعودية.

(ثائر الرأس) أي مُتَنَفِّشُ شعر الرأس، على عادة الأعراب، فإنهم لا يصرحون شعورهم.

(نسمع دوي صوته) أي نسمع صوته العالي المدوي، ولكننا لا نفهم كلامه.

(حتى دنا) أي حتى اقترب من الرسول ﷺ، فلما دنا فهمنا كلامه.

(يسأل عن الإسلام) أي يسأل عن شرائع الإسلام وأركانه، فأخبره ﷺ بها، وهي: (الصلاة، والزكاة، والصوم) ولم يذكر له الحج، لأنه لم يكن قد فرض في ذلك الحين.

(إلا أن تطوع) أي ليس عليك غير الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، إلا أن تفعل زيادة عليها، نافلة وتطوعاً، وأصلها تطوع، حذفت التاء تخفيفاً.

(فأذبر الرجل) أي انصرف من مجلس الرسول ﷺ راجعاً وهو يقول: واللّهِ لا أزيد على ما أمرني به محمد ﷺ، ولا أنقص شيئاً منه.

(أفْلَحَ إِنْ صَدَقَ) أي قال ﷺ نال الفلاح والنجاح، وفاز وظفر بمطلوبه، إن صدق في تمسكه، بهذه الفرائض التي ذكرتها له. . . .

وفي رواية أخرى: «أفلح وأبيه إن صدق» وفي رواية أخرى: «دخل الجنة وأبيه إن صدق» وهذا ليس بخلف، وإنما هي كلمة جارية على اللسان على عادة العرب.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه إن الصلاة ركن هام من أركان الإسلام، وهي «خمس صلوات» في اليوم والليلة فقط.

الثاني: وفيه جواز الحلف بالله تعالى، من غير استحلاف، ولا ضرورة، حيث حلف الأعرابي بحضرة النبي ﷺ، بقوله (والله لا أزيد على هذا) ولم ينكر عليه.

الثالث: وفي الحديث بيان طبيعة الأعراب في رفع الصوت، من غير مراعاة للآداب في مخاطبة الرسول ﷺ، لبعدهم عن مجالس الفقه في الدين.

الرابع: وفيه القطع بالشهادة من الرسول ﷺ بالفلاح والفوز، لمن أدى الفرائض الدينية.

الخامس: وفيه بيان أن أركان الإسلام خمسة، وهي (الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة) بعد النطق بالشهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ولم يذكر فيه (الجهاد في سبيل الله) لأنه فرض كفاية، لا فرض عين.

السادس: وفيه أن السفر من بلد إلى بلد، من أجل طلب العلم، أمر مندوب إليه، فقد جاء الأعرابي من بلد بعيد هي (نجد)، إلى المدينة المنورة، وبينهما ما يزيد على ألف كيلومتراً.

باب (اتباع الجنائز من الإيمان)

٤٧ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ، إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ).

[الحديث طرفاه في: ١٣٢٣، ١٣٢٥]

شرح الألفاظ

(مَنْ اتَّبَعَ) أي مشى خلف جنازة مسلم، وَلَحِقَهَا حَتَّى دُفِنَتْ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ.
 (إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا) أي تصديقاً بكلام الرسول ﷺ، الذي أوجب على المسلم اتباع الجنائز، وطلباً للأجر والثواب من الله تعالى.
 (يَرْجِعُ بِقِيرَاطَيْنِ) أي يرجع بقيراطين من الأجر، كل قيراط مثل جبل أحد، والقيراط أصله: المال الكثير الذي لا يحصى.
 (وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا) أي صَلَّى على الجنازة، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ، قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، كان له من الأجر قيراط واحد.

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث الحثُّ على الصلاة على الميت، واتباع جنازته، وحضور دفنه، وتقييده بالمسلم، ليخرج الكافر والمنافق، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤] ومعنى القيام على قبره: حضور دفنه، فإنه من حق المسلم على المسلم.

الثاني: وفيه أنَّ الثواب المذكور إنما يحصل لمن اتَّبَعَ الجنازة إيمَانًا وَاحْتِسَابًا، لا لأنه صاحب منزلة ومكانة، كما يخرج الناس لجنازة الغني، والأمير، والوزير، مجاملةً لأهل الميت.

الثالث: وفيه وجوب الصلاة على الميت ودفنه، وهذا أمرٌ مجمع عليه.

الرابع: وفيه أنَّ المشي خَلْفَ الجنازة خيرٌ من الركوب.

الخامس: وفيه أنَّ ذكرَ القيراط في الحديث، لبيان الكثرة، لا لعددٍ محدَّد، ولذلك مثَّلَ له ﷺ بالجبل، والجبل لا يُعرف مقدارُ عدده.



بَابُ (خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ حُبُوطِ عَمَلِهِ)

٤٨ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ).
[الحديث طرفاه في: ٦٠٤٤، ٧٠٧٦]

شرح الألفاظ

(سَبَابُ الْمُسْلِمِ) السَّبَابُ بكسر السين: الشتم، والوقوع في عرض المسلم، وهو أشد من السب، وهو أن يقول في الرجل ما فيه، وما ليس فيه، وخلاصته: أن يتكلم في عرض المسلم بما يعيبه.

(فُسُوقٌ) أي خروج عن طاعة الله، لأن أصل الفسوق: الخروج، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَذْكُرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١] أي هو عدوان، وخروج عن طاعة الحق جلّ وعلا، وهو أشد العصيان.

(وَقِتَالُهُ كُفْرٌ) أي سفك دم المسلم إذا أقدم على قتله كفر، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣] أي يؤدي إلى الكفر، ولم يرد به حقيقة الكفر، الذي هو الإنسلاخ عن ملة الإسلام، بل أطلق عليه الكفر، مبالغة في التحذير من القتل، أفاده ابن حجر.

وقال الخطابي: المراد به «الكفر الحقيقي»، وذلك إذا استحلّ قتله، من غير دليل ولا تأويل، لأن استحلال الحرام، كفر على الحقيقة.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه التحذير من سب المسلم، لأنه يؤدي إلى الفسق، واللعن أسوأ منه وأقبح.
الثاني: وفيه تحريم قتل المسلم، وأنه من أعظم الكبائر عند الله، وقد يؤدي إلى الكفر، كما قال ﷺ في حجة الوداع: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض).

الثالث: وفيه التفريق بين السبِّ، والقتل، فالسَّبَابُ فسوق وعصيان، والقتالُ كفرٌ بالله وعدوان.

باب (التحذير من التنازع والتخاصم)

٤٩ - عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يُخْبِرُ بَلِيلَةَ الْقَدْرِ، فَتَلَاخَى رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ ﷺ: «إِنِّي خَرَجْتُ لِأَخْبِرْكُمْ بَلِيلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنَّهُ تَلَاخَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَرُفِعَتْ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، التَّمِسُّوْهَا فِي السَّبْعِ، وَالتَّمِسُّوْهَا فِي الْخَمْسِ»).

[الحديث طرفاه في: ٢٠٢٣، ٦٠٤٩]

شرح الألفاظ

(تَلَاخَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ) أي تنازع وتخاصم، والتَّلَاخِي: التخاصم والجدل.
(فَرُفِعَتْ) أي رُفِعَ تعيينها من ذاكرة النبي ﷺ، بسبب التنازع والتخاصم.
(التَّمِسُّوْهَا) أي اطلبوا وقتها في العشر الأخير من رمضان، في الخامس والعشرين، والسابع والعشرين، والتاسع والعشرين.

شرح الحديث

أراد رسول الله ﷺ أن يُخْبِرَ أصحابه بليلة القدر، ويعيّن لهم وقتها، فتنازع شخصان من الصحابة، وارتفعت أصواتهما في المسجد، فنسي ﷺ تحديد وقتها، هل كانت في الخامس، أو السابع، أو التاسع، في العشر الأخير، من شهر رمضان المبارك، وارتفع علمها في تلك السنة.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه أن ليلة القدر في شهر رمضان، لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ

فِيهِ الْقُرْآنُ ﴿ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١] فدلَّ على أنها في شهر رمضان، ولهذا قال ﷺ: (التمسوها في العشر الأواخر من رمضان).
الثاني: وفيه دليل على أنَّ المخاصمة مذمومة، وأنها سبب في العقوبة والحرمان من بعض الأرزاق والخيرات.

الثالث: وفيه أنَّ رجاء ليلة القدر، في العشر الأخير من رمضان أقوى، والترغيب في طلبها لزيادة الاجتهاد في التماسها، لكونها أفضل من ألف شهر عند الله تعالى.

باب (سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام)

٥٠ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزاً يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ ﷺ: (الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ).
 قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «الْإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ».
 قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهِمِ فِي الْبُتَّانِ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ». ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الْآيَةَ [لقمان: ٣٤].

[الحديث طرفه في: ٤٧٧٧]

ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ: «رُدُّوهُ». فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ، جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ».

قال البخاري: جعل ذلك كله من الإيمان. اهـ انظر صحيح البخاري.

شرح الألفاظ

(بارزاً) من البروز بمعنى الظهور، فقد كان ﷺ ظاهراً للناس، غير محتجب عنهم.

(فَأَتَاهُ رَجُلٌ) المراد بالرجل، المَلَكُ (جبريل) عليه السَّلام، جاء النبي ﷺ في صورة رجل، ولم يعرفه أحدٌ من الصحابة.

وفي رواية مسلم: (بينما نحن جلوسٌ ذات يوم عند رسول الله ﷺ إذ طَلَعَ علينا رجلٌ، شديدٌ بياض الثياب، شديدٌ سَوَاد الشعر...) الحديث.

(مَا الْإِيمَانُ)؟ أي سألَه ما هي أصول الإيمان؟ وما هي أركانه؟ فَعَدَّ له النبي ﷺ أصوله: (الإيمان بالله، وبالملائكة، وبالكتب السماوية، وبالرسل، والتصديق بالبعث بعد الموت، وبالقضاء والقدر).

(مَا الْإِسْلَامُ)؟ أي ما هي أصوله وأركانه؟ فذكر له ﷺ: «النُّطْقُ بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام».

(مَا الْإِحْسَانُ)؟ فقال له: الإحسانُ مرتبة رفيعة، عالية القَدْر، تشمل إحسان العبادة والطاعة، وإحسان العقيدة، وإحسان العمل، مع الخشوع والخضوع والمراقبة لله... ولهذا بيَّن له الرسول ﷺ مرتبة الإحسان بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

(مَتَى السَّاعَةُ)؟ أي متى تقوم الساعة؟ والمرادُ بالساعة: القيامة، التي تجيء بعد خراب الدنيا، وفناء البشر، وهناك يكون يومُ الحساب والجزاء!

(مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) يريد أن الله عزَّ وجل استأثر بعلمها، كما قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣] فلا يعلم وقت مجيئها إلا الله ربُّ العالمين، وكأنه يقول: علمي وعلمك بها سواء، ولستُ بأعلمُ بها منك.

(وَسَأَخْبِرُكَ عَنْ أَسْرَاطِهَا) أي سأحدثك وأخبرك عن علاماتها.

(إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ رَبِّهَا) الأمة: الجارية المملوكة بملك اليمين (ربِّها) أي سيدها ومالكها، وهو كناية عن فساد أمور البشر، فيصبح السيد عبداً، والعبْدُ سيّداً، والخائِنُ مخلصاً، والمخلصُ خائناً، كما جاء في الحديث الشريف (يأتي على الناس زمانٌ، يُؤْتَمَنُ فيه الخائنُ، ويخُونُ فيه الأمينُ، ويكون أسعدُ الناس بالدنيا، لُكْعُ بْنُ لُكْعٍ) أي اللئيم الفاجر، ابنُ اللئيم الفاجر.

(تطاولوا في البنيان) أي إذا تطاول أهل الإبل الحفاة الرعاة في الأبنية الشاهقة، وكثر البنيان لهؤلاء الرعاة، الذين كانوا يسكنون الخيام، فصارت عندهم الأبراج الشاهقة، والمنازل المرتفعة، وكثر عندهم المال، فهذا دليل قرب الساعة، كما هو في زماننا، وهذا الخبر من معجزاته ﷺ.

وفي رواية مسلم: (وأن ترى الحفاة، العرءاء، الرعاة، رعاء الشاء يتطاولون في البنيان).

(ثم أدبر) أي خرج الرجل السائل من عند الرسول ﷺ، فقال ﷺ لأصحابه: «ردوا علي السائل»! فخرجوا فلم يجدوا أحداً، فقال لهم الرسول ﷺ: «أتدرون من السائل؟» قالوا: لا، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

ما يستفاد من الحديث

الأول: في الحديث استغراب الصحابة لأمر هذا الأعرابي، الذي كان يسأل الرسول ﷺ ويصدق، كأنه يمتحن النبي ﷺ في أقواله وإجاباته.

الثاني: وفيه مجيئه بصورة رجل من البشر، يستفسر من الرسول عن أمور الدين.

الثالث: وفيه التفريق بين (الإيمان) و(الإسلام) فالإيمان اسم لما بطن من الاعتقاد، وهو التصديق بالقلب، والإسلام هو الأعمال الظاهرة، من الصلاة والصيام، والحج، والزكاة.

الرابع: وفيه بيان عظم مرتبة الإيمان، ومرتبة الإسلام، ولكل واحد فروع وأركان.

الخامس: وفي الحديث دليل على تمثيل الملائكة بأي صورة شاءوا، كما تمثّل جبريل بصورة رجل من الأعراب.

السادس: وفيه المراقبة لله عز وجل، في السر والعلن، وأن يعبد المؤمن ربه وكأنه يرى الله، وهي مرتبة الإحسان العالية.

السابع: وفيه الانتفاع بالعلم، عن طريق السؤال والجواب، دون التلقين المباشر.

الثامن: وفيه الاعتراف بعدم العلم إذا لم يعرف الجواب، وقول الإنسان: (لا أدري)، لا يُنقص قدر العالم، ولا يُزيل ما عُرف عنه من جلالته، فهذا رسول الله يقول: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل».

تنبيه لطيف هام

في قول النبي ﷺ حين سُئل عن علامات الساعة، فأجاب بقوله: «أن تلد الأمة ربتها» كناية لطيفة، وإشارة بديعة، إلى فساد الأحوال، آخر الزمان، وانقلاب الأوضاع، بحيث يصير السافلُ عالياً، والعالي سافلاً، والشريفُ وضيعاً، والوضيعُ شريفاً، وأن يُكرم الرجلُ مخافةً شره، وأن يُوسد الأمرُ إلى غير أهله، وأن يتحكم في رقاب الناس الأراذلُ والأسافلُ، ويُنحَى الأكارم والأكابر، كما قال الشاعر:

فبينا نُسوسُ النَّاسَ والأمرُ أمرُنَا إذا نحنُ فيهم سُوقَةٌ نُنَصِّفُ
فأفُ لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقْلُبُ تَارَاتٍ بِنَا وَتَصْرَفُ

٥١- عن ابن عباس (أن هرقل سأل أبا سفيان عن أمر رسول الله ﷺ، وعن أتباعه هل يزيدون أم ينقصون...)؟ الحديث.
[الحديث طرفه في: ٧]

تقدّم ذكره وشرحه في الحديث رقم (٧) وهو حديث طويل، وفيه فوائد كثيرة، أرجع إليه هناك.

باب (فضل الاستبراء للدين)

٥٢- عن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (الْحَلَالُ بَيْنَ، وَالْحَرَامُ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، كَرَّاعَ يَرَعَى حَوْلَ الْجَمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ جَمَى، أَلَا إِنَّ جَمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ).

[الحديث طرفه في: ٢٠٥١]

شرح الألفاظ

(الْحَلَالُ بَيِّنٌ) أي أمرُ الحلال واضح، لا لبس فيه ولا غموض، يعرفه الإنسان بفطرته.

(والْحَرَامُ بَيِّنٌ) أي وكذلك أمرُ الحرام واضح، لا يخفى على كل إنسان.

(أُمُورٌ مُشَبَّهَاتٌ) أي بين الحلال والحرام أمور مشبهات، يشكل أمرها على بعض الناس، هل هي حلال أم حرام؟

(لا يعلمهن كثير) أي لا يعلم حكمها كثير من الناس، لخفاء أمرها عليهم، هل هي من المباح؟ أم المكروه؟ أم الحرام؟

(اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ) أي اجتنب وابتعد عما يُشكُّ في أمره، من الأحكام المشبهات.

(اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ) أي طَلَبَ البراءة والنزاهة لدينه من النقص، ولعرضه من الطعن فيه.

(ومن وقع في الشُّبُهَاتِ) أي ومن لم يجتنب هذه الشبهات، وقع في الحرام، وعَرَّضَ نفسه للعقوبة، ثم ضرب ﷺ المثل له فقال:

(كَرَاعٍ يَزْعَى حَوْلَ الْجَمَى) أي كمن يزعى غنمه، حول حدود أرضٍ محميّة، لمليكٍ عظيم، ممنوع الاقتراب منها، فإنه يعرّض نفسه للخطر.

(يوشك أن يواقعَه) أي يوشك أن يقع فيه، فيعرّض نفسه للعقوبة.

(جَمَى اللَّهِ محارمُهُ) أي لكل ملك من ملوك الدنيا سياجٍ وسور، يحمي قصره من دخوله، وجَمَى اللَّهِ: هو المحرّمات التي حرّمها الله على عباده.

(في الجسد مضغة) أي قطعة من اللحم، قدر ما يُمضغ من الطعام، عبّر عنها بالمضغة لصغر حجمها، وهي قلب الإنسان، الذي هو المحرّك والمسيطر على البدن، إن صَلَحَ القلبُ، صَلَحَت جميع أجزاء الجسد، وإن فسد القلبُ فسدت جميع الأعضاء في الجسد.

ما يستفاد من الحديث

الأول: فيه اجتناب ما يقع في الشبهات، لأنها تجرّ إلى الوقوع في المحرّمات.

الثاني: وفيه الورع في الأمور الدينية، من حلال وحرام، خشية الوقوع في الحرام.

الثالث: وفي الحديث تنبيهٌ على تعظيم مكانة القلب، والحثُّ على تطهيره وصلاحه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

الرابع: وفيه الأمرُ بالعناية بالكسب الحلال، في المطعم، والمشرب، والملبس.

الخامس: وفيه أنَّ المستكثرَ من المشبوه، تصير عنده جرأةٌ على ارتكاب المحظور، والمنهيَّ المحرَّم.

تنبيه هام

هذا الحديث اعتبره بعضُ المحدثين من أمهات أحاديث الأحكام، كما نُقل عن أبي داود أنه قال:

عُمْدَةُ الدِّينِ عِنْدَنَا كَلِمَاتٌ مُسْنَدَاتٌ مِنْ قَوْلِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ
اتْرَكَ الشُّبُهَاتِ، وَازْهَدْ، وَدَعْ مَا لَيْسَ بِعَيْنِكَ، وَاعْمَلْ بِنِيَّةٍ

تذكير وتبصير

قال الحافظ ابن حجر في هذا الحديث: (وفي اختصاص التمثيل «بالراعي يرعى غنمه حول الحمى» نكتةٌ بدیعة، وهي: أن ملوك العرب كانوا يَحْمُونَ المراعي لمواشيهم، في أماكن خاصة، ويتوعَّدون من يرعى فيها بغير إذنهم بالعقوبة الشديدة، فمثَّل لهم الرسول ﷺ بما هو مشهور عندهم. فالخائفُ من العقوبة، المراقبُ لرضى الملك، يبتعد عن ذلك الحمى، خشيةً أن تقع مواشيه فيه، فبعده أسلم له، وغيرُ الخائف يرعى في جوانبه، فلا يأمن أن تقتحم الغنمُ في مرعى الملك، فيستحقَّ العقوبة، فاللهُ هو الملكُ حقاً، وحمَاهُ محارمُهُ). اهـ. فتح الباري ١/١٢٨.

باب (أداء الخُمُس من الإيمان)

٥٣ - عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ الْقَوْمُ؟ أَوْ مَنْ الْوَفْدُ؟» قَالُوا: رِبِيعَةٌ. قَالَ: «مَرْحَباً بِالْقَوْمِ -

أَوْ بِالْوَفْدِ - غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَضْلٍ، نُخْبِرَ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلَ بِهِ الْجَنَّةَ. وَسَأَلُوهُ عَنِ الْأَشْرِبَةِ: فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاَهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَخَدَّهِ، قَالَ: «اتَذَرُوا مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَخَدَّهِ». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُغْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمْسَ». وَنَهَاَهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الْحَنْتَمِ، وَالذُّبَاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمُرَقَبِ وَرُبَّمَا قَالَ: «الْمُقَيْرِ». وَقَالَ: «احْفَظُوا هُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ».

[الحديث أطرافه في: ٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥، ٣٥١٠، ٤٣٦٨، ٤٣٦٩،

٦١٧٦، ٧٢٦٦، ٧٥٥٦]

شرح الألفاظ

(وَفْدٌ عَبْدُ الْقَيْسِ) أي الجماعة الذين قدموا على رسول الله ﷺ من قبيلة (عبد القيس بن ربيعة) وكانوا يسكنون في البحرين، ومدينة الأحساء، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، والوفد: هم الجماعة الذين يُختارون من قومهم، لملاقاة العظماء والكبراء من الناس.

(مَنْ الْقَوْمُ)؟ هذا سؤال معرفة واستفسار أي من أي قبيلة أنتم؟

(قَالُوا رِبِيعَةً) أي نحن من قبيلة (عبد القيس بن ربيعة) وكانوا خير أهل المشرق، فقد ورد أن الرسول ﷺ بينما كان يحدث أصحابه إذ قال لهم: «سيطلع لكم من هذا الوجه - أي الجهة - ركب هم خير أهل المشرق» فلتقاهم عمر رضي الله عنه.

(مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ) أي صادفتهم رَحْبًا أي مكاناً واسعاً، وحللتهم سهلاً، ولاقيتُم ما تحبُّون من الضيافة والتكريم، وهي أصل التحية للضيوف في قولهم: «أهلاً وسهلاً».

(غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى) أي غير مُذَلِّين ومهانين، وغير نادمين على ترككم الوطن، لأنكم أسلمتم طوعاً، من غير حربٍ أو سَبِيٍّ، يلحقكم به الذل والفضيحة، بشَّرههم ﷺ بالخير عاجلاً وآجلاً، لأنهم قدموا عن رغبة في إظهار الإسلام.

(فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ) مرادهم الأشهر (الحُرْم الأربعة) لأنهم يأمنون فيها من العدوان، كما تعارفوا عليه في الجاهلية، من تعظيم حرمة الأشهر الحُرْم، (رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم).

(**كفار مُضَرَّ**) كانت ديارهم في طريق الوافدين إلى المدينة المنورة، ولم يُسَلِّموا بعد، ولكنهم كانوا يعظّمون شهر رجب على وجه الخصوص، ولهذا أُضيف إليهم الشهر، فقليل: (شهر مُضَرَّ) عند ذكر الأشهر الحُرُم، وهو (رجب الفرد).

(**بأمرٍ فضِّل**) أي مُرّنا بأمرٍ واضح جليّ، من أمور الحلال والحرام، نخبر به قومنا، ونعمل به في بلادنا، لأنه يشق علينا إثباتك كل مرة.

(**فأمرهم بأربع**) أي فأمرهم ﷺ بأربع خصال، ونهاهم عن أربع خصال: (أمرهم بالإيمان بالله والشهادة له بالوحدانية، وإقامة الصلاة، ودفع الزكاة، وصوم رمضان، ودفع الخمس من الغنمة).

(**ونهاهم عن أربع**) وهي: (الحَتَمُ) والحَتَمُ: جِرازٌ كبيرة تحمل فيها الخمر إلى المدينة، وكانت تُنقل من الطائف. (والدُّبَاء) هو القرعُ الشتوي الكبير الذي يُطرح فيه التمر أو العنب، فيتسارع فيها التخمر.

(**والنَّقِيرُ**) جذع من الشجر، يُنقر وسطه، ويُجعل كإناء يضعون فيه النبيذ، وهو سريع التخمر أيضاً.

(**والمزفت**) أي المَطلِيّ بالزفت، وكلُّها أوإن يتسارع فيها التخمر، من أنواع التمر، والعنب، والزبيب، والرطب، فقد كان من عادة العرب استعمال هذه الأواني للخمر، حرّم عليهم الرسول ﷺ كل ما يتسارع إليه من الأواني لصنع الخمر والنبيذ، وقد كان أهل الجاهلية يشربون الخمر، كما نشرب نحن الماء الزلال، ويضعونها سنين في أوإن كبيرة، لتصبح معتقة، ويُسرّع فيها الإسكار.

سبب ذكر هذا الحديث

هذا الحديث له قصة، ذكرها الإمام البخاري في مقدمة ذكر الحديث، وهي أنّ (أبا جَمْرَةَ) - واسمه «نَضْر بن عِمْران» كان يرافق ابن عباس، ويترجم له، لأنه كان يتقنُ الفارسية - قال أبو جَمْرَةَ: فكنْتُ أقعدُ معه، يُجلّسني على سريريه، فقال لي ابن عباس: أقم عندي، حتى أجعلَ لك سهماً من مالي، فأقمتُ معه شهرين، ثم قال لي: (إنَّ وَقد عبد القيس، لمّا أتوا النبي ﷺ قال لهم: (مَنْ القوم؟) أو من الوفد؟ ثم ذكر بقية الحديث).

وذكر الحافظ ابن حجر سبباً آخر فقال: كان (أبو جَمْرَةَ) يترجم لابن عباس، فيكون بينه وبين الناس، فأنته امرأةٌ تسأله عن نبذ الجرّ - أي ما يُطرح في الجرار أياماً ليصبح نبيذاً - فنهى عنه ابن عباس، فقلتُ له: يا ابن عباس إنني أنتبذ في جرّة